الليل الرحم

محمد روميش

دراسة : عبد المنعم تليمة



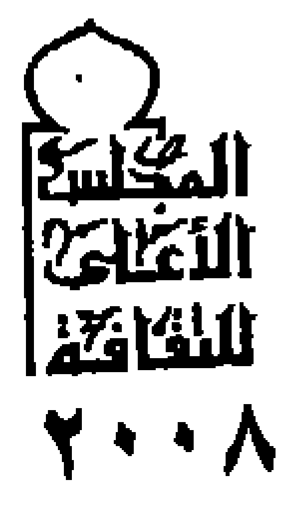
المجلس الأعلى للثقافة

الليـل .. الرحـم

(قصـص قصـيرة)

محــمــد رومــيــش

دراسـة : عـبـد المنعم تليـمـة



٢٠٠٨

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

روميش ، محمد

الليل .. الرحم ، قصص قصيرة ، محمد روميش

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٨ ، ط ٣

١٩٢ ص ؛ ٢٠ سم

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٦٨٢٩
الترقيم الدولى 2 - 865 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

المحتـــويات

الإهــداء 5

النشيد من الأفق الغربى 7

فرح ســلامة 49

الليلة الجاية 63

الليل الرحم 77

كل شىء حقيقـة 115

عين الحياة نظيرة 147

دراسـة 171

إهـــداء

إليهم ..

سادة الأرض ..

عازقيها ..

عهداً ..

ومحبة ..

وولاء ..

محمد روميش



النشيد من الأفق الغربى

(١)

.. ثم توارى الجحيم ..

.. كانت تصبه الشمس ، فتصنع الحقل .. حقل الوسية الواسع .. فرنًا كبيرًا ، يشوى ما به من ناس ..

ومن بعيد .. من حيث تلتقى السماء بحقل القطن .. أقبلت نسمات .. تجفف العرق .. تعانق رءوس الشجيرات .. تموج اللوزات المتفتحة بلونها الأبيض الشاهى ، فيبدو القطن بحرًا .. كبيرًا صاخبًا .. يغطى الزبد صفحة مائه ..

.. وابتسمت « ست أبوها » وهى تتخفف من الخرق التى تلفها فوق رأسها وحول رقبتها عازلة أشعة الشمس من أن تحيل وجهها التفاحى البشوش ، قطعة فحم ..

.. وأطال إبراهيم تأمل ست أبوها ، وأسقط فى قلبه ، ملاحة البنية .. ووقف بعينيه على خديها المتوردين ..

- ست ابوها مش للغيط يا اولاد ..

رآها بكرت فى داره .. كنستها وجزءًا من الحارة .. ملأت البلاص من الترعة ، ورجعت فى يدها حزمة حبأ البحر .. أخضر .. معطر .. تقربه إلى أنفه .

- قوم يا ابراهيم الشمس علو الدنيا ..

- يا شيخه سيبينى شويه ..

- وحياة سيدى ذى النون ما اسيبك ..

واعترضت ساق إبراهيم شجرتا قطن تشابكت فروعهما .. شق طريقه وسط الأغصان المتشابكة .. أحس اللسع ونقط دم صغيرة .. قانية .. متجمعة على ركبته .. مسح الدم بقطعة قطن دسها خلسة فى عبه .. لتأخذ طريقها إلى بوركشير . وسارعت ست أبوها تمد يدها بمنديل اعتادت أن تلف به صابونتها أم ريحة .. تشمم إبراهيم المنديل عميقًا ، ورده .. التقط الحنو من عينى ست أبوها .. ورفع قامته ..

عندى .. من الورد

بستان .. ورد

بيطرح .. ورد

وخادم .. الورد

بيسقى الورد

ماء الورد

سبع سنين السنة

حارس جناين الورد

... قفز لون وردى باسم .. صبغ وجه ست أبوها بخجل أليف .. ارتعشت أصابعها الماهرة ، وهى تنتزع القطن من لوزاته .. وبصوت خفيض .

– مش قلت لك يا ابراهيم ..

– قلت إيه يا ست ابوها ..

– قلت لك متغنيش الموال ده ..

– ليه يابت ..

– أحسن الناس .. بتعرف ..

– تعرف إيه ..

– ما اعرفش ..

.. وأتت إبراهيم المناسبة التى ينتظرها من الفجر الباكر .

– صحيح يا ست ابوها ..

– صحيح إيه ..

– الواد عواد .. راح لامك .. ليلة امبارح .. عشان يخطبك منها ..

.. ابتسمت ست أبوها .. بعينيها الاثنتين أطبقت على وجه إبراهيم ، فى لقطة كبيرة .. وجه أسمر مستطيل . جبهة مفرودة ، عالية .. أنف طويل .. شعيرات رفيعة صفراء ... لمعت تحت شمس العصارى فوق شفته العليا .. ورأتها شارباً مبروماً .. أكبر من شارب زيدان الخولى ..

– أقول لك الجد يا ابراهيم ..

– أيوه .. قولى الجد ..

– هو .. قابل امى ليلة امبارح .. قالت له .. صحيح يا عواد يا ابنى .. انت عندك نص فدان أرض .. وعندك بقرتك فيها شوية اللبن .. لكن مخبيش عليك .. العيال بيحبوا بعض .. وانت عارف بنتى مقطوعة من سجرة .. عاوزه اجوزها لواحد .. بيحبها .. وتحبه .. عشان لما اموت .. أموت مرتاحه .

– مقطوعة من سجرة إزاى يا ست ابوها .. دا كلام .. عيب .. آنى رقبتى فدا التراب اللى تدوسى عليه .. مطرح م كنتى ..

.. ارتعش جسد الفتاة .. كاد يغلبها الدمع .

– م انى عارفه كده يا ابراهيم .

.. لم تقو الشتمة التى جاءت من الخلف .. من زيدان الصعيدى ، أن تشوه بهجة الفرحة أو تقلل من رغبة الصغيرين فى أن يلقى كل منهما رأسه فى صدر الآخر .. فوق قبة الفرن ..

– يعنى ياد .. يامفعوص .. مفيش غيرك انت والبت الصفره دى .. طول النهار ودوده .

.. غطى العرق البارد جلد الفتى .. ضرب قلبه بشدة .. داخل صدره وهبط .. ضاق وجه الدنيا الممتد بلا نهاية .. الخولى زيدان .. ثور هائج .. لسانه أطول من الفرملة وأوسخ من نعل البلغة القديمة .. يشتم ويضرب بالشوم .. وبالكف .. وبالرجل .. وله ضهر يحميه .. « ملعون أبو الوسية .. من طأطأ .. لسلام عليكو .. » .

– انت يا عم زيدان .. مش عايز الخطين يتجمعوا .. ويسبقوا الخطوط ..

– متردش على يا كلب .. على «الحلال من دراعى» ما تروّح سليم..

.. ساد غيط الوسية صمت جنائزى .. تخدشه خرفشة الأصابع .. تلتف حول اللوزات ، والسيقان تتخطى فروع الشجيرات المجموعة .. ورجال يلمُّون القطن من الأنفار الجامعين .. الأكياس ترتفع وتربط فى طريقها إلى مخزن الوسية .. صوت زيدان .. يتنقل وراء الأنفار .. هائجًا .. يشتم .. يُهدد بالضرب وقطْع اليومية .. ويقسم بالطلاق من ذراعه اليمين بأنه لن يسمح للأنفار بالعودة إلى دورهم إلا بعد غطسة « الشمس » .

– أصل آنى عارفكم .. فلاحين ... ما تجوشى إلا بالكرباج ..

.. تلفت إبراهيم حـوله .. صف طويل من الأنفـار .. رجـال البلد ونِسْوانها وعيالها كلهم يرتعدون من اسم الوسية .. ويخافون زيدان .. يتحدثون عن طول زيدان .. وعرضـه وكف زيدان« يوم م ضـرب أحـمد فقلبه على الأرض » .. وعلى ابن زينب خرق طبـلة أذنـه لأنـه تجـرأ « وممشاشى من قدامه يوم رى القطن » .

.. تنـفَّس إبراهيم كمداً .. حط على قلبه حمل ثقيل كالرصاص سار فى دمه .. امتصته كل خلايا جسده الشاب .. تمزقت أمامه الحيرة التى ركبتهِ يومًا .. لأنه رأى بعينيه أباه يقبل يد حضرة العمدة .. والعمدة مجعوص على المصطبة .. الشمس تنزف سيور الدم فى الجهة الغربية .. الصمت الثقيل .. يحط على الأنفار .. الأنفار يقسمون بينهم وبين أنفسهم أنهم لن يعملوا فى غيط الوسية بعد اليوم .. لكن كلا منهم يعلم يقينًا أنه لن يوفى بقسمه .

فجأة تصرخ فاطمة .. تلقى ما بعبها من قطن مجموع ..

- مبروك .. مبروك .. يا ضنايا .. يا حبيبى ..

.. ينكسر الصمت الذى فرضه زيدان ..

فمبروك مولود فاطمة الصغير الذى تنيِّمه بجوار عود تيل كبير .. جرجره ذئب جائع .. وانطلق الأنفار .. ينهون يومًا من حياتهم .. ويطاردون ذئبًا بين أنيابه صغير منهم .

(٢)

.. الدق المتواصل على الباب يصل إلى أذنى ست أبوها .. دفوفًا تتقدمها هى و إبراهيم إلى بيت العدل .. الدق يرتفع وهى تسرع الخطو مع العريس إلى القاعة التى فرشوا فيها حصيرتها الجديدة ، وفى ركن القاعة الصندوق الخشبى المزركش أحمر وأخضر وأصفر .. بجوار «البوريه» .. لمحت حلة الاتفاق .. أحست بالخجل .. وإبراهيم يوارب باب القاعة ويسلم الرجال والنساء والأطفال المهتاجة شاش الفلاح الأبيض تنقشه بقع الدم .. ونسوة يغنين .. « شرفتينا يا بنتنا يا زينة .. » .

« قولوا لابوها إن كان جعان يتعشى .. » ترتفع القُلَّة الجديدة .. وقبل أن يصل الماء إلى فمها تهب مستيقظة متضايقة ظمأنة .. وتسمع الدق على باب دارهم .. وكان إبراهيم بالباب ..

– خير يا ابراهيم .. خير ..

– مش باين ياست ابوها .

وبها رغبة عميقة أن تقص عليه الرؤيا ..

– ياخويا ولا يهمك من زيدان .. ولا من بتوع الوسية كلهم ..

– مش من زيدان ياست ابوها .. الانجليز مع العساكر الهجانة والغفر .. محاوطين البلد بحالها .. وبيلموا كل الرجاله .

- خش .. أخبيك فى قاعة الفرن .

- يادى العيب ياست ابوها .. استخبى فى قاعة الفرن .. وبعدين يجرجرونى .. وتبقى فضيحة فى البلد ..

- ياخويا يوم .. والا اتنين .. معهلش ..

- مفيش فايدة ياست أبوها .. وآنى بصلى الفجر .. سمعت انهم جايبينها من فوق .. م المنصورة بلد .. بلد .. عزبة .. عزبة يلمُّوا الرجالة ويشحنوهم ع المنصورة .. دول كمان بياخدوا الجِمَال والخيل والحمير .. حتى الفراخ والدره .. والشعير ..

- يادى الخراب ياولاد .. ليه ده .. هيه المنصورة اتخربت ..

- منصورة إيه ياهبله .. أنا سمعت انهم بيشحنوا دا كله على مصر .. وبعد كده محدش عارف .

- يادى الخيبة .. ومين اللى هيشتغل فى أرض الوسية .

.. وشد عساكر الهجانة إبراهيم .. وانتشروا فى باقى غرف الدار الواسعة بإرشاد شيخ البلد .. للتفتيش وخرجوا وليس بيدهم سواه .. وثار رئيس الفرقة أحمر الوجه .. يتكلم بلكنة الخواجات .. تجار القطن .. متسائلاً عن الرجالة .. والجِمَال .. والبقر .. والخيل والحمير .. والحبوب .. ورد شيخ البلد بلسانه ويده وجسمه .. ليس بالدار سوى

امرأة عجوز وابنتها .. والبنت تعمل باليومية .. فى أرض الوسية .. كل يوم برزقه .. لكن أحمر الوجه .. طلب أن تتبرع العجوز لمنظمة الصليب الأحمر ..

.. لم تفهم أم ست أبوها .. سوى أنهم حملوا مع إبراهيم .. عريس ابنتها .. أجرة ست أبوها جمعة بحالها .. وأربع فرخات بياضة .. وبطه سوده .

.. فى العصر .. ارتفع كالعادة .. دخان الكوانين .. يحمل رائحة الروث الجاف المحترق ورائحة الملوخية والبامية والرِّجْلة والحُمِّيضْ .. وتراءى للرجال المشحونين فى العربات اللورى .. أن دخان الطبيخ .. حريق مكتوم .. يتصاعد لأعلى .. وتحملهم العربات ، كل لمصير .. لا يدريه .

(٣)

.. فى غيط القطن .. أمام الخولى زيدان .. ترنم الأنفار .. بلدى يابلدى .. السلطة خدت ولدى .. بلدى .. يابلدى .. أنا بدى أرجع بلدى .

وينتهى جمع القطن .. وقطع الحطب .. وحرث الأرض .. وبذر الحنطة .. ويدخل على قريتنا فصل شتاء جديد ..

(٤)

.. هذه السنة .. واجـهت ست أبوها .. شـتـاء فـريداً .. مع حلول الليل .. والدوام للّه وحده .. يهل إبراهيم على كتفه لبشة القصب .. وفى جيبه الفول السودانى ، وخرطة العجوة السيوى .

– سالخير يامه امباركه .. ازيك .

وينحنى على أم ست أبوها .. يصافحها ويقبِّل يدها .. سمراء .. جافة .. رقيقة الجلد .. معروقته .. وإلى جوارها يتخذ مقعده .. تمسح بكفها على رأسه .. تطبطب على كتفه :

– ازيك يا ابراهيم .. ازيك يا ولدى .. قومى يابت ولَّعى الطاجن ..

.. الصغير يستعرض فتوته فى كسر أعواد القصب .. وتستغرق ست أبوها فى إشعال النار .. ويتوسطهم الطاجن .. وتمتد الأصابع تستدفئ .. ويملأ الدخان قاعة الفرن من الأرض للسقف .. وترتشف الأفواه الصغيرة العصير البارد .. ومن جيب الجلابية يخرج إبراهيم لفَّة العجوة السيوى .. وفيما يشبه السر يدسها فى يد أمه .. أم ست أبوها .. خالتى امباركه ..

– وخدى كمان يامه .. حتة الهريسة .. دى .. أصل انى عارف سنانك مش حمل القصب ..

.. وعلى ضوء اللمبة أم فتيلة .. المختنقة بين سحابات الدخان .. تبدأ الأم فى .. الحكى بعد تمنع منها وحلفان من إبراهيم ..

- يا ابراهيم .. يابنى .. حكايتنا .. عواجيزى .. قولوا انتوا حكاية من حكايات الايام دى .

.. ويعرف إبراهيم أن فى يده ورقة رابحة .

- وحياة سيدنا النبى يامه تحكى حكاية .

.. تصهل ست أبوها ضاحكة .. هى تعرف مشاهد السهرة مشهداً .. مشهداً وذلك لا يمنعها من الضحك .. بل إن تحقق ما تتوقعه .. على النحو الذى توقعته تماماً .. يدفعها .. أكثر .. إلى الإغراق فى الضحك .. وتبدأ الأم من حكاية ست الحُسن والجَمَال مع ابن السلطان والشاطر حسن .. والفتاة عنيبة التى خطفها الغول وعاشت جارية فى قصر معزول عال ..

.. وتبدأ الأم .. دائماً ..

- صليتوا .. بينا .. على سيدنا النبى ..

وتلتقى عيون .. إبراهيم وست أبوها .. وتنفرج الشفاه .. ويتأخر الجواب عن الأم .. تتغاضب وتقسم بحياة سيدى ذى النون .. أنها لن تحكى هذه الليلة .. ويسرع الصغيران ..

- اللهم صلى على سيدنا النبى .

وتعاود الأم .

- كمان زيدوا .. النبى .. صلا .. وحياة سيدى ذى النون إن ما زدتوا .. النبى صلا .. مانى فاتحه حنكى .. أصل جيل الايام دى كده ..

وتصمت الأم قليلا .. ثم تبدأ بتؤدة واحترام ..

- كان .. ياما كان .. ما يحلى الكلام إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام .. كان .. فيه ..

.. ويحدث كثيراً أن يغلب الأم .. النعاس .. فتغمض عينيها نصف إغماض .. وينخفض صوتها مع قليل من البحة ..

- كمان زيدوا النبى صلا .. كان فيه .. يا اولاد .. كان النوم سلطان .

.. وتصحو الأم على صوت قهقهة نشوانة ..

- اللّه يجازيكوا .. يا اولاد ويجازى شيطانكم .. سمعنا ياواد يا ابراهيم موال .. بس يكون مدح فى سيدك النبى .. مش من مواويل الأيام دى ..

.. وكله خجل حقيقى .. يتمنع إبراهيم .. وتلح ست أبوها هذه المرة .. ويتنحنح إبراهيم .. ويجرع كوز ميه .. ويغمض عينيه قليلا ..

عندى من الورد

بستان ورد .

لكن فى هذه السنة .. واجـهت ست أبوها .. شـتـاء فريداً .. يدخل الليل .. وهى من المغرب ممددة إلى جانب خالتى امباركه .. تتقلب على الجنب اليمين مـرة .. وعلى الجنب الشـمـال مرة .. وتهب فـزعـة من حلم ألقاها فى بئـر عميقة .. وتعـود تتقلب على الجنبـين وتحك تحت إبطها .. وتتسمـع صـوت الشـيـخ حلمـوش يـؤذن الفجـر فـلا تسمعه .. وتهز أمها .

– احنا إمته يامه ..

– يا ست ابوها نامى .. لسه كتير ع الفجر ..

وتنام ست أبوها .. ويتـعـارك إبراهيم مع زيدان الخـولى .. وينبـثق الدم من جبـهة إبـراهيم وتأخذه على صـدرها تجفف الدم وتربط جبـهتـه بالمنديل أبو ريحة .. وتفزع وتقنعه أن يبقى المنديل حتى لا يصفى الجرح دمه .. ويعض فـأر كبير الإصبع الوسطى من يدها اليسـرى وتستيقظ .. وتتقلب على الجنب الثـانـى .. وتعـود مشاهـد الحلم الكبيـر .. مـرة تركب هودجاً ويتـهادى بـها الجمل حـول البلد .. ومرة النسوة والفتيات يسبقنها وهى تخطو إلى جـوار إبراهيم حول البلد فى طريقهما إلى بيت العدل .. القاعـة .. الحصيـرة الجديدة المنقوشـة مرة .. وسادة مـرة .. وحلة الاتفاق داخلهـا دكـر البـط فـوق البـوريه .. وإبراهـيـم يخـلـع جـلابـيـتـه الدبلان البيـضـة .. دكة اللبـاس الحمـرالمجدولة من خيـوط الصـوف تتـدلى بين فخذيه .. مرة تجلس القرفصاء على الحصيرة بجوار المخدة .. ومرات هاربة منه فى ركن القاعة .. ودائماً يوارب إبراهيم الباب ويدفع بالشاش

الأبيض المنقط بالدم إلى الناس المنتظرة على الباب .. وتصحو قبل أن يبلغ ماء القُلَّة شفتيها .. وتتقلب على الجنب الثانى .. تتذكر النسوان اللائى حدثنها عن ليلة الدخلة ..

– زى قرصة الدبور ..

– يابت يا ست ابوها .. أخد الوش زى قرصة الدبور .

– يا شيخة حرام عليكى .. هـ .. تخوفى البت .. والنبى يا ست ابوها .. دى .. زى قرصة البرغوت ..

– يابت ماتخافيش .. لا برغوت ولا دبور .. ولا هـ .. تبقى حاسه بحاجه .. ومن داق عسل الخلايا يصبر لقرص النحل ..

– أقول لكم .. ان كانت ست ابوها بتحب ابراهيم يبقى زى قرصة البرغوت .. وان كانت بتكرهه .. يبقى زى قرصة الدبور ..

– إن كان كده .. ست ابوها مش .. هـ .. تحس بحاجة ..

– يادى الكسوف .. دا انتو نسوان بجحة صحيح .. وحياة سيدى ذى النون ..

– آل يعنى آل .. يختى اللى يخاف من العرسة ما يربيش فراخ ..

.. ويضحك إبراهيم .. وتغنى النسوة

« شرفتينا يا بنتنا يا زينه .. »

.. وحدث أن كانت تزف إلى إبراهيم .. وهتفت لنفسها وهى نائمة « يابت ده حلم .. ياست ابوها .. انت بتحلمى .. » وتصحو فارغة تمامًا .. شىء قاس يمسك بصدرها من الداخل .. لا يسمح لها حتى بأن تحزن أو تبكى .. تصحو مخنوقة .. تنهج كأنها قادمة من مشوار طويل .. تود لو تبكى .. لو تطلق دموعها تغرق الدنيا بحالها ..

– أمه .. لسه أد إيه ع الفجر .

– خلاص يا بنتى .. الشيخ حلموش هـ .. يسبح كمان شويه ..

– يمكن خدته نومة .

– أستغفر اللّـه العظيم ... يا بنتى دا .. الملايكة بتصحيه عشان يدن الفجر ..

– الليلة دى مالهاش آخر .

– أستغفر اللّـه العظيم .. يا بنتى ما دايم الا وجهه .

– لكن ياامه .. هو الواحدة تحلم انها بتحلم ..

– اللهم اخزيك يا شيطان .. هـ .. افتى يابنتى فى اللى ماليش فيه .. الصباح رباح نسأل الشيخ حلموش ..

– أووه ..

– ماتنفخيشى يا ست ابوها .. رزقك ع اللى خلقك ..

(٥)

... بعيداً عن سوق الثلاثاء فى المنصورة .. وعن سوق الخميس فى السنبلاوين ..

حتى عن سوق الأربعاء فى طنطا .. آخر ما يصل إليه النابهون والرحالة الكبار من رجال قرية تلبانة ..

.. بعيداً عن أرض مصر .. كانت نجمتانِ تبهتان ببطء فى الجهة الشرقية .. وتباشير ضوء كاب – تنبعث من بعيد .. وانطلق دوى صفارة كئيب .. أفزع الرجال النيام أو المهدودة ..

تحسس كل منهم فأسه ومقطفه .. انتزعوا أنفسهم من رقدة أبدية . طوابير .. يتحلق كل خمسين حول ريس – يوزع عليهم زاد يوم .. وتفرقع السياط فى الهواء .. وينطلق الرجال إلى الجبل .. جبل عال ، أعلى من النخلة مرة .. مرتين .. قل ثلاث .. تضرب الفئوس بطن الجبل .. الأكتاف العريانة تحمل المقاطف تفرغها بعيداً .. المقاطف الصغيرة تصنع تلالا فوق الجبل وتخلى ضربات الفئوس سكة مشقوقة فى بطن المستحيل ..

.. فى المقدمة .. وفى أعلى الجبل .. وقف وجه أحمر آخر .. كالذى خطف إبراهيم من فوق قبة الفرن ، يرسم ببال رائق عرض السكة المشقوقة .. ويتقدم « ريسه » كبار .. يفسرون ويشرحون إلى « ريسه »

أصغر .. كلمات تنتقل من لسان إلى لسان حتى تصل إلى الفعلة فئوساً تضرب .. ومقاطف تحمل .. وتلالاً صغيرة تنشأ .. وتحبو .. وتكبر على جانب السكة المشقوقة .. الرجال الفعلة .. الشغيلة .. موجات زاخرة .. كالعاصفة في بحر بلا نهاية أو أن آخره من الجهة الأخرى التي وقف عندها المهندس الإنجليزي يرسم عرض السكة المطلوبة لتمتد فوقها خشبات ترمى عليها قضبان حديدية .. يقيسها إنجليزي آخر .. ويشير لمن يربطون المسامير القلاووظ الكبيرة .. وتمتد سكة حديدية تربط جنوب الشام بشماله .. وينقل الإنجليز جيشهم مارا وسط جبل لا تبلغ أعينهم مداه .

الذي يشق الجبل .. لا يعرف ماذا يدور .. فالفأس ترفع وتهوى والمقطف يلقى فارغًا ويحمل طافحًا .. ورافع الفأس وحامل المقطف وربما ريسهم الصغير نفسه .. لا يرون أكثر مما تحت أقدامهم .. الجبل ممتد .. فيما يراه .. بلا نهاية .. السوط في يد الريس يبدو أثقل من الجبل .. وهو قد قطع كل ما بينه وبين الدنيا من صلات ، يد الفأس .. وحمل المقطف .. هما ضمان الحياة في هذه البقعة الغريبة من الدنيا الواسعة التي لا أمان لها .. يوقظونه في الفجر.. لا يقضي حاجته .. لا يفرغ أمعاءه .. كوز ماء يستلمه ريا ليوم طوله ألف عام .. كبشة عيش زاداً ليوم ليس له آخر ، حتى السوط الذي يشق جسده غدا لازمة من لوازم العيشة .. شيء واحد يرهبه رافع الفأس وحامل المقطف .. أن يضعف .. أن يهن .. أن يرفع الفأس فلا تكسر الجبل القاسي .. أن تنخ

كتفه وتنوء فلا تحمل المقطف ويصنع التلال التى تعلو وتفصل بين عالمين .. هنا حقيقة واحدة .. يعرفها يقيناً .. يعرفها بجسده .. بعروقه .. بالنبض فوق صدغيه تحت الحمامات الموشومة .. حقيقة يعرفها بجسده وينكرها بعقله .. هو لا يصدقها وإن كان يعيشها .. أنه يعرف بكيانه كله .. مصيره .. إذا تخلخل فلم تشق الفأس ولم يحمل المقطف .. سيحملونه .. سيحمله هؤلاء الأنفار الذين يحادثهم ويشكو لهم .. سيحملونه ويقذفون به حيا وراء التلال التى تصنعها المقاطف فوق الجبل . ليموت مفزوعاً .. على مهل .. ببطء .. بانتقام .. ومن العالم الثانى .. عالم ما وراء التلال .. ينبعث منه الفحيح .. وتصعد الآهات والأنين .. وأحياناً صرخات مكتومة واستغاثات ضائعة .. وهمهمات خافتة ونداء للأم تمتصه الريح الباردة .. وإشارة اللهفة إلى شربة ماء .. وينقلب نصف الحى على ميت هو الآخر وجهه مفزوع القسمات ، عيناه تحملقان فى فراغ موحش .. فمه مفتوح .. الشفاه بيضاء مشقوقة .. وتصفر الريح ويسيل المطر .. ويصنع الثلج طبقة هشة .. تتلوى تحتها الأجساد .. وتكسو ما وراء التلال ، رائحة حياة تموت وموت يتنفس .. أجساد تتقلب على جثث .. وفوقهم يتدحرج قادم جديد .. هذا شق الجبل .. وثان أحرقه العطش .. طفح جردل عرق واستنفد صنوف الحكمة فى استخدام لتر الماء الذى استلمه فى الفجر .. وانتهى لتر الماء ولم يكف الجسد الحى عن نشع العرق .. وسقط ولم يبل شفتيه .. واستقبله عالم ما وراء التلال وهمس حاملوا المقاطف لحملة الفئوس .

– وسمعته يا احمد .. بيقول .. شفتة ميه .. حد يبل شفتى ..

– وعملت إيه يا ناشد ..

– الكرباج شق كتفى بنص ضهرى .. وخدت المقطف ونزلت ..

ويعود الرجال الذين يحملون المقاطف برؤاهم القاتلة .

– بعينك يا بدراوى .. شفت الميتين مع الحيين .. ؟

– إنت مش مصدق .. وحياة دى الليلة ومساها .. وحياة من جمعنا من غير ميعاد يا شيخ .. صعيدى على بحراوى .. شفت واحد ميت مطبق بصوابعه على دراع واحد حى .. وده بيفك فى صوابع الميت .. مش قادر ..

– يا ناس دا حرام .. يعملوا جبانة للميتين .. وجبانة للحيين ..

والأجساد الساخنة وسط الصقيع والهواء البارد الذى ينشف الطوبة – لا تكف عن طفح العرق .. الشفاه تجف .. الحلوق تجف .. كل خلايا الجسد تعتصر ، ولا تكف عن طفح العرق ..

.. الشمس تتسلط عامدة متعمدة .. البرد ينفذ كالمسامير المحمية فى النار .. ولا تكف الأجساد عن طفح العرق ..

– لكن يا واد يا عواد .. احنا فين ..

– وحياة غربتنا يا ابراهيم .. أنا تايه ..

– من فين جابوا الناس دى كلها ..

– م البلاد يا ابراهيم .. شوف .. من بلدنا لوحدها طلعوا كام راجل ..

– لكن يا عواد .. فين رجالة بلدنا .. دول شحنوا من بلدنا لوحدها .. أكتر من عشر عربيات .

– سألت الريس صميدة .. قال .. إن رجالة البلد الواحدة .. يوزعوهم على فرق كتيرة .. دا غير اللى بيرموهم ورا التل ..

– بتعرف تحدت الريس صميدة يا عواد .. انت يا واد .. طول عمرك شاطر .. يا ماكُت بتروح سوق السنبلاوين تشترى عجوه ويستفندى وفول سودانى ..

– دا .. انت اللى مالفتش يا ابراهيم .. دا بنى آدم .. زيى وزيك تمام .. يطلع علبة الدخان ويلف السجاير .. ومرة عزم على بواحده .. وياما كلمته .. ويقوللى يا عواد .. يا بحراوى يا خرع .. ومرة قال لى .. احنا يا واد يا بحراوى أكتر من ألف ريس .. جول ألفين كل واحد تحت إيده جول خمسين فواعلى .. وسواعى فيهم هنود والهنود دول فيهم سيك ومسلمانى .. ومرة شاورلى على واحد كان ماشى زى جزع النخله .. وقال لى انت شايف ياد يا بحراوى يا خرع اللى ماشى ده .. قلت له أيوه ياعم الريس صميدة .. قال وحياة سيدك عبد الرحيم الجناوى .. ده استرالى ..

– يا واد يا عواد .. الدنيا واسعه ..

على أن إبراهيم لم يهمس إلى عواد عن الشيء الثقيل الذى يربض فى أعماقه .. لقد شب على أنه ليس من الحكمة أن يقص الحلم إلا إذا كان يبشر بخير .. فالحلم يتحقق بتفصيله فى كلمات محددة تخرجها الشفاة ، ولم يسمع أمه تنطق كلمة « العِرْسَة » التى أكلت الكتاكيت الصغيرة .. إنها تسميها « المخسوفة » إن المسافة مرفوعة بين الكلمة التى وضعت للدلالة على الشر وبين الشر ذاته ..

.. فى القاع البعيد لنفس إبراهيم .. يكمن خوف قاتل .. خوف يجفل إبراهيم أن يتحدث عنه أو يشير إليه .. فالحلم بأشياء سيئة يتحقق بحكاية الحلم .. صورة الجبانة الغريبة التى تقع على مرأى بصر من إبراهيم .. يزيحها عن مخيلته .. فتعود إليها أكثر وضوحاً .. الأموات تتقلب على الأحياء .. إبراهيم يضرب الفأس بقوة ليبعد عن فكره .. موت صلحى صاحبه فى الحارة وفى شيل السباخ وجمع القطن وتنقية الغلت من غيطان القمح والسهرات فى مولد سيدى ذى النون .. وأن يموت الصديق فالأعمار بيد اللّه ، بيده كل شيء .. أما أن يلقى صلحى حيا يستقبل ربا كريماً فى هذه الجبانة .. فإبراهيم يكاد يزيح بيده الفكرة عن دماغه والواد سليمان ابن عم جرجس النحال وطاقيته الدبلان البيضة .. فينك يا سليمان .

فات شتاء منذ شحننا الغرباء فى عربات لا تستجيب لتضرعات راكبيها وتعود إلى تراب تلبانة .. أما أن يقذفوا إبراهيم حيا وراء التل .. ففكرة لا يكاد يصدقها .. فكرة يقاومها بالفأس تضّرب

بطن الجبل .. وهو كله شغل يابو خليل .. فى غيطان الوسية .. فى جبل الإنجليز .. فى أرض العمدة الحرامى ابن ستين .. كله شغل .. كله شغل .. وبنى آدم .. غلا .. أو نزل .. نصيبه كله لقمة عيش .. هدمة تستر جسده .. والآخر حتتين قطن على فمه وورا ضهره .. لكن الناس الانجليز . الميه بالقطاره .. عيش وأقله يكفى لكن الشرب .. والنوم .. حرام .. حرام الشغل من النجمة لنص الليل .. ياما لعنت الشيخ حلموش يابو خليل وصوته الخشن المبحوح يوقظك لصلاة الفجر .. اخترعوا ولاد الكلاب .. الصفارة الملعونة .. والريس صميدة .. رجل لا فى قلبه تقوى أو إيمان .. حرام عليك يا ريس صميدة .. غسيل الوش .. قلنا .. نستغنى .. لكن ياراجل الميه المحبوسة طول الليل فى البطن .. مفيش دقيقتين نفكها .. على الحرام الخولى زيدان نفسه .. اللّه يعافيه بالعافية .. ما كان يقدر يحوشنى مفكش الميه .. لكن معلهش .. يابو خليل فين كلام الشيخ حلموش فى خطب الجمعة .. أيها الناس ما يصيبكم إلا المكتوب لكم فى اللوح المحفوظ .. واللى يتبلى ببليه .. تكفر عن ذنوبه .. واللّه وحشتنى يا شيخ حلموش . سامحنى .. ياما نعست وانت ماسك الورق فى ايديك وبتخطب خطبة الجمعة .. وده ذنب كبير يابو خليل .. والواحد عليه ذنوب .. متعدش وادى احنا بنكفر عنها ..

مع اختفاء الخطوط الحمراء بعد غروب الشمس .. أحس إبراهيم بفراغ داخل ركبتيه لم يلق له بالا .. واصل طعن الجبل بفأسه .. يرفعها أعلى من رأسه بحديدتها التى فى حجم دماغ طفل فوق المشط الذى

يغوص .. ويملأ المقطف ليحمله من يصعد به إلى أعلى التل .. ويرفعها ليملأ المقطف الثانى .. والثالث .. مقاطف بعدد شعر الرأس .. ويصعد الألم إلى صينية ظهره .. والمقطف يلقى فارغًا ليرفع مليئًا .. والفأس ترتفع وتنزل .. وينتشر الألم فى ذراعى الفتى .. والفأس ترتفع وتنزل ومقاطف ترمى فارغة وتشال طافحة .. والظلام يسقط ببطء وتقاد الفوانيس والكلوبات وتتراقص خيالات الرجال والفئوس والمقاطف فى عينى إبراهيم .. وتدق عروق دماغه تحت الحمامتين الواقفتين أعلى صدغيه .. ويرفع الفأس وتبدو رأسها الحديدية أكبر من قبة سيدى ذى النون .

– واد يا همام ..

– أيوه يا ابراهيم ..

– أنا حاسس انى تعبان شويه .

– إجمد يابو خليل ..

– إمته .. هـ .. يخلص النهارده يا واد يا همام ..

– لسه بدرى يابو خليل ..

– يا واد يا همام انا دايخ ..

– أعوذ باللّه .. اصبر شويه ..

– مش قادر اشيل الفاس ..

- أقول لك على شورة ..

إنت شايف شجرتين الينسون .. اللى هناك دول ..

وبين شجرتى الينسون الكبيرتين .. ألقى إبراهيم بجسده .. لم ينعس .. أسلم جسده لأمِّه الأرض .. يتنفس فوقها كما يتنفس ورق الينسون .. وكما تتنفس دودة القرضة .. والسحلية التى تحمل مفتاح الجنة وترقد تحت جنبه .. وكما تتنفس حفنات التراب الرطيبة التى تظللها غصون الينسون ..

الخولى زيدان يشد على يده .. واللّه حمد اللّه على السلامة يا واد يا ابراهيم ..

وأمه .. خالتى ام ابراهيم .. تحتضنه وتبكى غير مصدقة ، مش مصدقة يا ابراهيم يا ضنايا يا سيدى ذي النون له دستتين شمع .. وليلة لأهل اللّه .. يقرا فيها الشيخ حلموش عشان رجعتك ليه بالسلامة ..

ست أبوها قادمة .. من بعيد .. تغطى وجهها .. و .. صوت غريب عن مجتمع شجرتى الينسون ودودة القرضة .. والسحلية وزيدان .. وخالتى أم إبراهيم .. وست أبوها صوت يأتى من أغوار مجهولة .. ويتقلب إبراهيم ويزيح عن نفسه أكوام التعب والنعاس وينقلب على جنبه الثانى والصوت يتضح أكثر .. فأكثر .. ويفزع إبراهيم .. وفتح إبراهيم

عينيه .. ووقعتا على حافرى حصان .. وشال بصره إلى أعلى .. وتجلت أمامه الرؤيا المخيفة .. إنجليزى على ظهر جواده .. نزل الراكب .. رطن .. شد كف إبراهيم اليمنى وقرأ رقمًا مثبتًا على قطعة حديد تلتف حول معصمه كساعة اليد .. انطلق الحصان بالراكب .. حمل إبراهيم فأسه وجرجر هواجسه ومخاوفه التى مزقته إلى فرقة الريس صميدة .. وكله ينتفض بالفزع . حكى لعواد ..

– .. أنا خايف يا عواد ..

– .. الخوف من اللّه ..

– هـ .. يموتونى يا عواد ..

– يا شيخ قال اللّه ولا فالك ..

– نفسى اشوف امى .. يا عواد ..

نفسى يا عواد .. أشوف بلدنا قبل مموت .. سجرة الجميز الكبيرة .. أبو قردان .. وابويه ..

أنا كنت بخاف من ترب بلدنا .. لكن الوقتى .. ياريت ادفن فيها ..

– يا واد يا ابراهيم سلامتك م الموت .. وحياة دى الليلة يا ابراهيم انت عندى أعز من نفسى .

– أنا عارف يا عواد .. وعاوز أقول لك حاجة ..

- أنا تحت أمرك . قول ..

- ست ابوها يا عواد .

- وحياة سيدى ذى النون .. حترجع لها سالم ..

- آنى عارف يا عواد .. قلبى حاسس .. اجوزها .. ست ابوها .. يا عواد لما ترجع البلد ..

عواد يرتج جسده كالمحموم .. ويضع كفه على فم إبراهيم يمنع شر الحلم أن يتجسد فى كلمة وكلمة عرسة تغتال صغار الفراخ كالعرسة ذاتها ..

- اجوزها يا عواد .. دى طيبة .. قلبها أبيض زى اللبن الحليب .. ياما كان فى نفسى .. انى مش كنت بحبها زى م واحد يجوز واحده .. كنت بعزها زى امى .. أختى .. واحد صاحبى .. دى غلبانه .. ياما شافت .. كان فى نفسى اريحها شوية من غيطان الوسية .. غلبانه .. ملهاشى حد غير امها ..

- كفاية يا ابراهيم ..

- أنا بقول لك اجوزها .. عشان عارف انك بتحبها ..

- ...

- ... نهرب فين يا عواد .. إحنا فين .. ويمسكونا بدل م يبقى واحد يبقى اتنين ..

بات الفرخ فى قفص الثعبان .

فى الفجر .. لم تسق فرقة الريس صميدة للعمل ..

.. الشمس العجوز كسا شروقها سحابات كثيفة سوداء .. فرقة الريس صميدة تقف حلقة .. فى وسطها إنجليزى ببدلته الصوفية الصفراء داخل معطف ثقيل تصطف أزراره من تحت الرقبة إلى ما بين الساقين .. تزين أكتافه وصدره نياشين مجهولة الهوية . قدماه غاطستان فى شرايين من الصوف .. الحذاء لامع كالبصقة .. اللحية حليقة ناعمة .. الشارب مثلث قاعدته شفة رقيقة .. يمر بلسانه عليها يمسح آثار آخر كوب من زجاجة ويسكى كبيرة .. ينتهى الشارب تحت أنف طويل كالبلحة الوارمة فى لكنة متكسرة .. كالخواجات تجار القطن .. أعلن أن إبراهيم سالم .. من فرقة الريس صميدة والذى يحمل رقم ١٩١٧ .. نفر كسلان .. وثبت أنه هرب من الخدمة .. ونحن فى حالة حرب كبيرة .. وقيادة المعسكر قررت جلده مائة جلدة .. عقوبة له .. وتحذيراً لغيره .. والقيادة هذه المرة قد استعملت الرأفة ..

.. وسحبوا فتانا إبراهيم سالم الذى يحمل رقماً لا يعرفه .. أدخلوا رأسه فى فتحة خشبية ضاقت باستدارة الرقبة .. شدوا يديه إلى الأمام .. قوسوا ظهره .. ووقعت الطاقية الصوف الحمراء المشغولة بالغرزة ومرت هبة هواء باردة هزتها .. ولم ترفعها يد .. وظهرت البقعة السوداء على جنبه الأيسر .. وحمة أم إبراهيم فى حفنة

عسل أسود .. ومرت هبة هواء ثانية باردة .. فحركت شعر « الأصة العايق .. » ورفع صميدة يمناه بالسوط مزحومًا بالزيت ثقيلاً .. وصرخ إبراهيم .. وصرخ .. وارتفعت الأنات .. لم يسمعها سيدى ذى النون صاحب الشمع الذى لا ينطفئ .. وارتفعت الأنات .. والأوراق المقدسة فى يد الشيخ حلموش على منبر الجمعة .. وخفتت الأنات .. تدلت رأس إبراهيم .. العد مستمر .. ستين .. واحد وستين .. اثنين وستين .. وانتفض الرجال الواجمون .. الساكتون .. وحمله بعضهم .. حمله عواد .. واستقبل إبراهيم ما وراء التل .

(٦)

.. خمسون سنة ..

.. تنقص سنة . سنتين .. تنقص عشر سنوات ..

.. قل تنقص خمسين سنة .. نحن لا نعد بالأرقام ..

.. نحن فى حوارى تلبانة .. قريتنا .. غيطانها .. وسككها وأشجار الجميز .. وأبو قردان الوفى وحميرها التى تدب بأقدامها متمهلة متباطئة .. تحرك الرقبة وتهتز الأذنان الطويلتان المتدليتان اهتزازة وقورة .. تصنع مع دبيب الحوافر المتمهلة قطعة بالية شجية .. تقول إن المصريين لم يتموا بعد رغم تعاقب فصول الفيضان .. بناء الهرم الأكبر .

(٧)

الشـمس على مـهل تصنع يومًا جديداً ، نورها يكاد يمس أعـالى شـجر الجـازولين والكافور .. سطح التـرعة تتصـاعـد منه بوخـة كـالتى تتصـاعـد من حَلَّـة بامـية تغلى رفع غطاؤها .. « خـالتى الست » تشق طريقها .. تتبـين بوضوح آثار قدميها فوق التراب الذى ختمه ما امتصه من ندى .. قشرة التراب الرطيبة تملأ بحنو الشقوق المفتوحة فى كعبى خـالتى الست . الشـمس تعلو من وراء غـيط الذرة .. قطرة ندى تلمع خضـراء حمراء صفراء على ورقة حلفاء مدببة .. أوراق البشنين المفرودة كالرغيف تنتشـر على سطح الترعة .. وتقفز فوقها ضفدعة .. أعواد النسـيل الخضـراء تمتـد على الحـافـة .. شـجـرة السنط العـجـوز تميل بجذعها على قلب الترعة وتصل إلى قرب البر الثانى ويتخذها الفلاحون الخبـثـاء قنطرة .. جنينـة العـمـدة القديمة تقذف خـالتى الست برائحة الجوافة .. قوية نفاذة .. نور الشمس يسقط على ورقة الجوافة الخضراء الداكنة وتبرز حبات الجوافة .. بقعًا صفراء .. اللعاب يزحف إلى فم خالتى الست وتغرق لسانها .

– سبحان الدايم .. عادت جنينـة الإصلاح .

– أشوح واحدة ياعم جبرين ..

– بس يابت هـ يعطى من ملك غيره ..

– ملكه والا ملك غيره .. قنعت والحمد للّـه ..

– بتحدتى مين يا ست ابوها ..

– انت فينى داهية يا واد يا عواد .. دايماً ورايا .. ورايا ..

– أنا فت ع الدار .. ندهت .. محدش رد ..

– مين هـ يرد .. يا حسرة .. أنا صاحية من أدان الفجر .. غسلت وشى وبليت لقمة .. وقلت يابت ادحدحى .. اسبقيهم ع الغيط ..

– تركبى الحمار يا ست أبوها .

– معدشى يمرى .. السكة خلصت .. الغيط قرب ..

– واللّه انا يا ست انا بيعز علىّ بهدلتك فى الغيطان ..

– مش عيب يا عواد .. أيام .. مين اللى مرتاح .. اللّه يرحم الجميع ..

.. اختار عواد لست أبوها خط قلب للقناية .. قطنه خفيق .. تقتعد حرف القناية وتميل الشجرة .. وتنتزع القطن من اللوزات وتثنى الشجرة .. وتضغط بيدها على حرف القناية وتنتقل للشجرة الثانية .. أولاد عواد .. ونسوان أولاده وأولاد أولاده بعدد خطوط الغيط من الحد للحد .. وقف خفير الإصلاح الزراعى يسأل ..

– عاوز كام كيس يا عم عواد ..؟

– هات كيسين يا ابنى ..

- قولى موال يا خالة الست ..

عم عواد لحفيده ..

- اجمع يا واد وانت ساكت ..

ابن عم عواد البكرى .

- يا راجل .. سيب العيال يتفكو .. احنا فى مدرسة ..

- ياتك الغم .. لسانك طويل زى ابنك ..

- قولى موال يا خالة الست .. وأنا هـ اجمع لك الخط بتاعك ..

عم عواد قذف حفيده بطوبة . تلقاها الصغير باسمًا عابثًا .. ونظر إلى أبيه يرى وقع ما حدث على قسمات وجهه ..

ابن عم عواد البكرى ..

- يا راجل نقطنا بسكاتك .. سيب العيال يجمعوا .. ولا أقول لك . قوم روح . فوت على النقطة دول كانوا عاوزينك ..

- اخرس لسانك ياوله .. دك خيبه . انت وابنك فى يوم واحد ..

ولكن حفيداً آخر مال على الصغير طالب الموال ..

- يا خايب الموال مايجيش كده .. سيبه ييجى لوحده دى خالتك الست متعرفشى تشتغل إلا اما تقول مواويل ..

- مين أكبر ياوله .. جدنا والا خالتك الست ..

– أنا سمعته مرة بيقول إنهم من سن بعض ..

صحيح كان داير عليها قبل ما يجوز جدتنا ..

– الله يرحمها .. قبل ما تموت سمعتها بتقول لابويه أبوك يا ابراهيم مالوش أمان .. ياما جرى ورا ست ابوها .. كان فى نفسيه يجوزها ..

عم عواد لم القطن من حزم الجميعة وألقاها فى الكيس .. أدار يده فى الكيس يسوى القطن ويكبسه .. وأسند ظهره إلى الكيس وفى ظله أخرج عليه الدخان .. وانتزع ورقة بفرة من الدفتر وأخذ من العلبة مسكة إصبعين دخان فرط .. أنام الورقة على السبابتين .. وبالإبهامين ، برم الورقة الرقيقة .. وبطرف لسانه بلل حرفها وبرمها .. فاستوت فى يده سيجارة تعلقت بين شفتيه .. سحب من جيبه كيس قماش صغير .. أخرج منه قطعة حديد مستديرة مع قطعة سن مشطوفة .. قرب يده من فمه وضرب الحديدة على الصخرة فتطايرت بضع شرارات وشد نفسًا عميقًا فاشتعلت السيجارة .. وزم شفتيه تاركًا ثقبًا ضيقًا .. طرد منه الدخان فانبثق خط أفقى .. ومن طاقتى أنفه نفث عمودين من الدخان تقاطعا مع الدخان المنطلق من بين شفتيه .. وسرح ببصره فمسح الأولاد ونسوانهم وأحفاده .. وبسط ساقيه .. ووقف عند ست أبوها .. ونبض عرق داخل صدره ..

– فين يا اولاد .. عمر .. عمر طويل .. من أيام م رجعت من السلطة .. رحت لامها .. كأنه امبارح .. دارهم اللى مفيرهاشى

الزمـان .. ياما سـمعت من المرحـوم ابويه .. الفاتحه لروحه .. وروح أمواتنا .. وأموات المسلمين .. ياما سمعت منه إن الدار دى كان فيها بدل الراجل خمسة .. أبو ست ابوها .. واخواته .. سبحان الدايم .. فضلت الوليه وبنتها .. مش هانسى أبداً .. يوم م قلت للوليه على اللى حصل للمرحوم ابراهيم ، اللّه يرحمه .. الوليه حزنت عليه .. يمكن اكتر من امه .. إلا ست ابوهـا .. ما فيش واحده بالوصفة دى .. تقع من طولها ساعة م تعرف ان ابراهيم مات .. يعنى يا ولداه لو عرفت اللى حصل له .. اللّـه أعلم .. كان عملت ايه فى روحها .. قاست كتير .. ما صدقتش ان ابراهيم قال لى يا عـواد اجـوز ست ابوهـا .. اللّـه يرحمك يا ابراهيم .. فين العود السرح الحلو .. ياما التراب بياكل ..

– اجوز ست ابوها يا عواد ..

كانت بتحبه .. وشهاده للّه .. أنا ما كُت بعتقد فى حكاية الحب دى .. وللوقتى كمان .. لكن ست أبوها .. فيه واحده تعمل كده .. تب لو مش بتحبنى .. كان اجوزت حد غيرى .. أمها قالت لها ..

– يا ست ابوها .. يا بنتى .. الأعمار بيد اللّه .. وربنا حلل الجواز .. عواد مش غريب ..

– يا امه راسى وألف سيف .. أنا خلاص عرفت بختى ..

– يا بنتى انت لسه صغيرة .. لا رحت ولا جيت والبخت عند اللّه مدارى ..

- يامه آنى مش هاآجوز .. لا عواد ولا غيره ..

- سيبيها يا خاله امباركه .. هيه .. رامية عينيها على حد تانى ..

- يا عواد يابنى .. دى بنتى وآنى عارفاها .. وحياة دى الليلة ومساها يابنى .. ما حد فى دماغ ست ابوها .. سيبها شويه .. الفرقة صعبه .. ودول يا بنى كانوا .. زى الاخوات ..

- يا عواد يابنى .. شوف عدلك .. بنتى حصل فى دماغها حاجة .. دى يا حبة قلبى طول الليل تعيط .. وساعات تصرخ وهيه نايمه ..

- يا خالة امباركة .. المرحوم ابراهيم قال لى .. إنه ما كانشى بيحب ست ابوها .. زى م واحد هيجوز واحده .. زى م يكون أخوها أبوها .. وانى مطرحه .. الجواز نصيب لكن انى خدام .. زى ابنك تمام .. وست ابوها على كل حال اختى ..

- البقية فى حياتك يا ست ابوها .. الدوام للّه .. ماتحمليش هم .. احنا محناشى غرب عن بعض .

- كتر خيرك يا عواد .. عملت اللى عليك واكتر .. لاكنت عارفه اكفن ولا ادفن .. ولا عارفه يمينى من شمالى . كتر خيرك ..

- كان عندها حق .. مين كان يتحمل اللى حصل لها .. الدار بتاعتهم أكبر من الجرن .. تنام فيها ازاى يا ولداه لوحدها .. والحاجة الغريبة انها ترد كل اللى راحوا لها .. مسكينة . كان عندها حق .

مـين كان يتحمـل اللـى حصل لها .. آنى نفسـى لما قالوا لـى يا عواد ست ابوها سـدت الدار عليـها ومـبتطلعشـى آدى جمـعه بحالـها .. خفت اخش الدار عليـها وكانت ليلة زى الطين .. دقيت ع الباب ما حدش رد مـرة .. واتنين وتلاته .. ادورت مـن ع السـطـوح .. ونزلت ع السلم الخـشب .. جزع مخله منجور .. لقيت نفسى جوه الدار .. ضـلمه خرس .. يا ست ابـوهـا .. يا ست ابوها .. خفت .. قلبى ضرب والفار لعب فى عبى ..

يا واد يمكن مـاتت .. يمكن هجت .. زى م بتـهج فـى مـيـعـاد جـمـع القطن كل سنة يمكن .. يمكن .. والدار زى الهو ..

– يا ست ابوهـا .. آنى عـواد .. اطلعى .. يا شـيخـه حـرام عليكى حلفـتـك بسـيدى ذى النـون وحياة ابراهـيم .. وفـين .. وفـين وفـين .. لما سمعت عياطها .. يا ناس دا حرام .. دا الوليه دى اتعذبت عذاب اللّه يلعن الحب .. على اللى بيحبوه ..

– يا عواد .. كـتر خيرك .. أنا كده مبسوطه .. سيبنى ..

– انتى فين الأول .. آنى مش شايف ..

– آنى فى القاعه اللى ماتت فيها امى ..

– اطلعى يا ست ابوهـا ..

– سـيبنى يا عـواد .. أطلـع اعمل ايه .. خير ربنا كـتير .. العيش فى المشنه .. والزير مليان ميه .

– على الطلاق من حليمه بنت البرعى يحللها شيخ ويحرمها شيخ ما اسيبك تنامى لوحدك فى الضلمه ..

الضلمه موتت قلبها .. الضلمه وحشه يا ناس .. انى أستغفر اللّه العظيم يارب .. ما اخفش من الملايكة اللى فى القبر زى م اخاف من الضلمه .. الضلمه عملتها راجل .. فيه واحدة زيها كانت تشتغل الشغل ده كله .. أراضى الوسيه .. أرض أرض .. حوض حوض .. فين .. والا فين .. والا فين .. آنى يللى اسمى راجل .. ما اشتغلتش زيها .. من ساعة م الوسية تحط بذرة القطن إيد ست ابوها ما تتعنشى عن الخط .. تزرع .. تخسل تنقى الغلت .. الحندوءة .. تلقم الكيماوى .. الحاجه وحشه يا ناس .. دى كانت بتسقى تحت مكنة الميه بالليل مع الرجاله .. والأكادة .. ان الناس خلاص .. قالت ست ابوها .. عادت راجل .. راجل يا خسارة .. يا خسارة يا اولاد .. اللّه يلعن الايام .. فين .. فين ست ابوها .. اللى كانت تجمع القطن طول النهار فى بؤونة الحجر .. السمس ما تشوفشى إيدها ولا وشها .. آخر النهار وهيه مروحه .. ولا بنت ناظر الوسيه كعبها يبقى أحمر زى الجزره ووشها زى الطمطمه .. اللّه يرحمك يا ابراهيم مش هـ انسى الموال بتاعك .. عندى من الورد .. كانت بستان ورد صحيح .. مين يصدق . الناس معذوره .. محدش شافها من اولاد الايام دى ، ورحت لها تانى بعد م اجوزت وبعد م جبت بسلامته ابراهيم .. على الحرام كان قصدى خير ..

– يا ست ابوها .. ربنا حلل الجواز من واحدة واتنين ..

– يا ست ابوها سيدنا النبى ، اجوز بعد ستنا خديجة ..

– يا ست ابوها أنا خدامك .. خليكى فى دار ابوكى زى ما انت دانى ومراتى والعيال تحت رجليكى ..

– كتر خيرك يا عواد .. عملت اللى عليك واكتر .. والأكاده الناس عملونى ولى أمرها .. الواد السعيد ابن فرحة يقوللى يا عواد آنى عاوز اجوز ست ابوها وجاى لك ، تقول لها ، قلت لها .. أعمل ايه .. أى حاجة احسن من الضلمه اللى عايشه فيها .. والشغل ليل نهار فى أرض الوسيه .. وأرض اللى يسوى واللى ما يسواشى .. أنا سمعت أباهتنا بودانى اللى هياكلها الدود .. إنها بنت أصل .. دارهم دى .. كان فيها بدل الجاموسة اتنين .. وبدل البقرة اتنين .. حتى الجمل سمعت ان المرحوم ابوها عنده جمل .. حكمة ربنا .. صحيح زى م قال اللّه يرحمه الشيخ حلموش .. اللى يسأل ربنا .. عملت دى ليه .. يبقى كافر .. راح فين دا كله .. الرجاله .. والبهايم والدنيا .. والآخر تصفصف على ست ابوها .. والطوفة تيجى لها .. لا ترضى بيه .. ولا بغيرى :

– يا عواد .. كنت انت أولى من السعيد ابن فرحه والا غيره .. دا انت جمايلك ما تتعدش .. عييت .. جبت لى .. الليمون البنزهير .. وجيت مع المرحومة امى وخدتونى للشيخ .. وجبت لى السحلية ربطتها

فى رقبتى .. وخدت الميه اللى الشيخ كتب عليها ورشيتها فى سبع مفارق .. ولما امى ماتت ما سبتنيشى .. ومعايه زى أخويه واكتر .. واللّه فيه اخوات ما بيعملوا كده .. كنت انت أولى يا عواد .. لكن انا مش بتاعة جواز .. جواز وقلنا كل شيء قسمة .. لكن اللقمة .. الحاجة وحشة ده انت عفوفة .. ياما رجعت الناس بزكاة رمضان .. وغير رمضان ..

– يا عواد آنى مش هاكل إلا من عرقى .. طول ما فيه صحة .. اروح واجى مش هاكل إلا من عرقى .. لما اعيا يتولانى اللى بيتولى الناس كلها ..

– يا ستى .. ده مش عيب .. والأقربون أولى بالمعروف .

– انت لسه هتعرفنى يا عواد .. بعد العمر الطويل ده .. العيب وقلته .. آنى ما بخدشى حاجة من حد الا بعرقى .. الحمد للّه .. الحمد للّه ع الصحة .. رضى .. ده ثواب .. سروح الغيط حسنه عند اللّه .. يا بخت من نفع واستنفع يا عواد ..

– طول عمرك يا ست ابوها .. دماغك حجر .. لينى يا وليه ..

– أبداً واللّه .. سيدنا الخضر .. جالى فى المنام .. وقال لى ياست ابوها .. سروح الغيط حسنة عند اللّه ..

– تب ريحى نفسك شويه ..

– يا واد يا عواد .. الراحه بعد لقاء اللّه ..

.. تعامدت الشمس فوق « شرخة » عم عواد .. فارتفعت حرارة الغيط وما فيه حتى قاربت الالتهاب خالتى الست العذراء .. ست أبوها .. تظلل رأسها أعواد ملوخية خضراء مربوطة من جذورها .. الأصابع الرفيعة الناشفة تقف مرتعشة على لوزة القطن .. الأولاد يميلون عليها يخطفون لوزة من هنا ولوزة من هناك يخففوا الخط أمامها .. الصهد حاصر عم عواد فهب فزعًا من البئر المظلم البعيد الذى وقع فيه .. سقط بصره على طرطور أعواد الملوخية الذى تحتمى به ست أبوها ..

– عمر طويل يا ست ابوها .. فين يا ولداه .. لو ترضى البقاء فى منزلها ويتكفلها عم عواد .. أقل لقمة تكفيها .. لكن راسها ناشفة وتعذبت بعنادها .

.. ووقف وراءها .. نادى ولدًا من أحفاده .. وأمره أن يجمع حرف القناة .. طلب من ست أبوها أن تستريح طول القيلولة تحت شجرة الصفصاف فى رأس الغيط .. رفضت ست أبوها .. أقسم عم عواد إيمانًا بالطلاق وبحياة سيدى ذى النون والست أم هاشم أنه لن يترك ست أبوها تجمع القطن فى القيلولة .. أحست ست أبوها أن عواد لا ينوى التزحزح عن رغبته أعلنت إليه .. أنها لن تتقاضى منه إلا أجر نصف يوم .. وفى ضربة خاطفة قارنته بالوسية .. وابتسمت فى وهن مفضلة إياه عن الوسية التى كانت تقطع أجر اليوم كاملاً . لو مرض النفر أو طرده الخولى قبل غطسة الشمس .. احتد عم عواد .. وأصر على عودة ست أبوها إلى البيت ..

.. استلمها في الطريق إلى المنزل .. عزم عليها أن تركب .. أنبته ست أبوها في ود ..

– انت يا واد يا عواد عقلك .. جرا .. له حاجة ..

– يا شيخه اركبى ملعون أبو الناس كلها ..

وهاجم عم عواد عناد ست أبوها بمناسبة رفضها ركوب الحمار وفى تلافيف دماغه أحلام الظهيرة فى ظل كيس القطن ..

– طول عمرك دماغك ناشف .. علىّ الطلاق ..

– طلاق من مين يا خيبه .. اجوزت اتنين ووديتهم .. يا عجوز .. يا نارش ..

ضحك عم عواد .. ولم يكن لديه أى نبض أن يصف ست أبوها بالكبر أو بالشيخوخة .. لا سمح اللّه ..

استوى عم عواد .. على ظهر حماره الأسود العجوز وفى محاذاته سارت ست أبوها .. الحمار يحرك رقبته فى تؤدة .. أذناه الكبيرتان تهتزان على وقع الحوافر البطيء .. تناغم صوتى وحركى يصاحب الكلمات بين عم عواد وست أبوها .. عم عواد يعاتب صديقة العمر .. فى ألمٍ واضح .. فهى لا تأكل قدرِ ما يتبقى من طفل .. وخير ربنا كتير .. وقسماً بمن رفع السماء بلا عَمَد عم عواد يشيل اللقمة من فمه إلى فم ست أبوها .. رجاؤه أن ترتاح .. لكن ست أبوها تفاجئه ..

– فاضل أد .. إيه .. على ما يكمل الجنيه ؟

– دماغك ناشف يا ست ابوها ..

- أنا بدى اكمل الجنيه .. علشان اموت وانا مرتاحة إنى سايبه تكاليف الكفن ..

.. كانا قد اقتربا من القرية .. اعترضهما الواد شحاته الغفير الميرى .. أعلن إلى عم عواد أن نقطة البوليس تطلبه فأصغر أولاده غاب عن المدرسة بلا تصريح وحرروا له محضراً ومطلوب منه كلمتين فى النقطة . سحب شحاته عم عواد إلى نقطة الشرطة .

قادت خالتى الست قدميها إلى داخل القرية .. كنست صحن الدار الواسعة .. ملأت البلاص من حنفية المجموعة ..

أوقدت الكانون تسخن صحن الملوخية .. خيمت العتمة .. داخل الدار الكبيرة .. رفعت رأسها إلى السماء من صحن الدار المكشوف .. بصعوبة تبينت شقا أبيض فى السماء .. حسرت القرطة عن رأسها .. عرت مقدمة شعراتها البيضاء ..

فتحت صدرها .. رفعت كفيها مفتوحتين فى مواجهة وجهها .. وفى تبتل عميق .. هل .. هلالك ..

- اجعله شهر مبارك ..

.. آمين .

.. آمين .

.. آمين .

* * *

فــرح ســلامــة

مبروك يا عم منصور

ولم يجب عم منصور .. كان فى دنيا ثانية .. كان دماغه يدور ... يوم ما كان راجع من الغيط المغرب يسوق حماره الهزيل أمامه ، ويسحب الجاموسة والعجلة الصغيرة المربوطة فى رقبة أمها ، وبين القافلة الصغيرة ، يسير عم منصور ، تصفع قامته المديدة ، هبة هواء بارد مرة ، وقطرات المطر مرات ، وبقدميه حذاء ضخم من الطين المخلوط بقش السكة وأعواد البرسيم ، أما البشت فلا يكاد يستقر على كتفى عم منصور .. ذلك أن الطريق مزدحم بالجاموس العائد آخر النهار .. وإذا ما رأت جاموسة جاموسة أخرى .. فإن عيونهما تتسع أولاً ثم يحدقان فى بعضهما ، وأخيراً ترفع كل منهما ، رقبتها إلى أعلى .. وسرعان ما تلتقى رأساهما عند القرون فى نطاح رهيب .. وعم منصور يخاف على جاموسته ، فما أن يحس بقرب الصراع حتى يلقى البشت على ظهر الحمار ، ويتفرغ بلا وقاء من المطر ، لحماية الجاموسة .. وعند اقترابه من باب الدار ينادى ، حوشى اللى فى السكة يا نظيرة ، وتسرع نظيرة بإخلاء ما يكون فى طريق البهائم .. وتفتح باب الزريبة ، وتتولى هى عملية الربط والعلف .. وعند عودة عم منصور من الجامع ، تكون قد حضرت الأكل ، وحضر سلامة والأولاد .. ويتناول الجميع ، العشاء

استعدادًا لنوم عميق .. لكن تلك الليلة وضعت نظيرة الأكل فوق الطبلية وتصاعد بخار فتة العدس ، وثلاث أربع بصلات تحيط بصينية الفتة .. وأقام عم منصور من أصابعه للبنصر والوسطى والسبابة شيئًا يشبه مشط الفأس ، وغرزه فى الفتة وبإصبعه الإبهام حصر اللقمة ورفعها إلى فمه ، وكانت ساخنة ، فنفخ .. ثم حدد بصلة ورفع قبضة يده وهوى بها عليها فتفسخت ، وهم أن يمد يده للقمة ثانية ، إلا أنه لاحظ أن سلامة ابنه لا يزال جالسًا القرفصاء فى ركن القاعة ، وقد اتخذ هيئة من يستعد لشىء ما .

– ماتخش تاكل ياابنى .

– لا .. مش واكل .

– ليه .. انت اتعشيت ؟

– الكلاب اهى بتاكل .. حد بيموت من الجوع .

– مال الواد ده يا نظيره ؟

– ياخويه ماليش دعوة .. انت حر انت وابنك .

– انطقى يا مره يا جموسة .. الواد زعلان ليه ؟

– أنا مالى ، هو .. عاوز .. يجوز .

– جواز إيه يا سلامة .. مش تستنى يابنى لما يفيض لنا قرشين .

– هاستنى لإمته .. ثلات بنات درت عليهم والآخر اجوزوا غيرى وانا بقيت مثله فى البلد .. هاجوز فاطمة بنت الشيخ عطية . لا مانش سارح .

– اللى مايسرحش ماياكلش .

– أنا عارف انك هاتقول كده .

وتدخلت الأم – من بعيد .. من وسط الدار .

– جوز الواد يا منصور .

– اسكتى انت مالكيش دعوة .. ياطور اللّه فى برسيمه .

– ماليش دعوة ازاى .. هو مش ابنى والا إيه .. يعنى لما يعملها ويطفش زى مابيقول مين اللى هاينفعنا .

– ...

وأحس عم منصور بالهزيمة .. ولكنه تحامل .

– هاجوزه منين يا نظيره .. الإيجار يادوبك سديناه ، والقرشين اللى زادو م جبنا بيهم هدمتين واشترينا الجحش .. والكيماوى بكره ربنا يفرجها نبيع شوية قطن صيفى والا شوية رز والسنه الجاية ربنا ما ينساش عبده .. وخاف سلامة أن يقتنع بكلام أبيه ، فعاجله .

– شوف .. ينساهماينسهش أنا ماليش دعوة .

... وقضى عم منصور ليلته مشغولا .. فهو لا يملك ما يحقق به رغبة ابنه ، وعرف من كلام زوجته أن الولد قد يهرب ويشتغل فى قرية بعيدة ، وهو لا يستغنى عنه فى الغيط ، فسلامة هو الذى يقوم بالعمل فى الفدادين الأربعة ، وبدا بالرجل ميل إلى لوم ابنه ، ولكنه راجع نفسه فالولد قد أحب ثلاث فتيات ثم تزوجن بغيره لكثرة تأجيل ميعاد كَتْب الكِتَاب ، والأرض على رأى المثل « اللى يجيبه القرد بعلق به الجحش » وأحس الرجل أنه في ورطة .. وأخذ يبحث عن حل .. وكان النعاس قد حوم حوله عندما استقر على أن يزور الشيخ عطية ، ويستمهله كَتْب الكِتَاب إلى السَّنة القادمة .

... وفى الصباح بدأ سلامة حركة العصيان المدنى ، فلم يتناول إفطاره ولم يحمل فأسه .. وآثر عم منصور السلامة ، فقاد قافلته إلى حقل البرسيم .

... وبعد صلاة العشاء كان عم منصور يطرق باب الشيخ عطية ، وبعد الترحاب والسلامات ، بدأ عم منصور ممهداً للموضوع مستعيناً بالقرابة البعيدة والجوار .. وانتقل إلى حالة الأرض وما تتطلبه من تعب ، ثم أردف متزلفاً ، بعد أن أشبع أبناء اليوم تقريعاً ، « هو انت يا شيخ عطية كنت حتقدر تفتح عينيك فى وش ابوك المرحوم جاب اللّه ، أهو ده الأدب صحيح » وطرق الحديد ، ظنا منه أنه قد سخن ، وارتدت المطرقة ، خائبة ، فالشيخ عطية ، ربنا يبارك ، عنده أربع بنات ، كبراهن فاطمة والمسألة استوت ، والرجل يريد أن يطمئن على مستقبل بناته قبل

الرحيل ، والبنت إن كبرت ضاع سوقها « وحرام برضه يا منصور ، نفوت سوق البنات » وخرج عم منصور مهمومًا ، فالحل الذى كان قد اطمأن له خاب ، وهو بين أن يزوج سلامة من فاطمة ، وقد أخذ مهلة أسبوعًا ، أو أن يترك سلامة يعملها ويطفش ، والأرض تبور ، وتبقى فضيحة ..

وما كاد عم منصور يضع قدمه فى الدار ، حتى فاجأته نظيرة .

– خير يابو سلامة .

– خير يا نظيرة .. الراجل العكروت عطية بن جاب اللّه الحرامى مرضاش البنت تستنى للسنّة الجاية ، وهو سلامة جاته الغم مش لاقى إلا الناس الواطية دى .

– البنت يا منصور .. شهادة للّه .. طيبة وشاطرة .. تقوم الفجر تملى الزير وتكنس قدام الدار .. وتلزق الجلة وتحلب البقرة .

– شاطرة والا عويلة .. احنا فى الواد اللى هايعطلنا ويفضحنا .

– ما تبيع يا منصور قنطارين قطن صيفى .

– ياستى ما انا هابيع عشان الكيماوى .

– بالمرة يمكن ربنا يوسعها .

– هايوسعها منين .. الحكاية كلها أربع فدادين .

- اشترى ابنك يا منصور بقنطارين قطن .

- أشتريه يا نظيرة بخرابنا ؟

- ياخوية ربنا يخليك ويابو سلامة ياما الجمل كسر بطيخ .

- ويام سلامة ياما البطيخ كسر جمال .

... وفى هذه الليلة نام عم منصور مستسلمًا مهزومًا ، يستعرض فى ذهنه أسماء الناس الذين سيبيع لهم القطن بنصف الثمن نظير تأجيل التسليم حتى جنى القطن ، وبرزت مقارنة فى دماغ عم منصور على أيام « المرحوم أبوه » لم يكونوا يعرفون قطن صيفى ، كان الواحد إن احتاج قرشين يستلفهم من جاره ، ويرجعهم له قرشين ، لما ربنا يفرجها ، أصل الناس فى البلد . كانت أيامها كلهم فقرا .

.. عم منصور ، كرجل فقير ، مكانه فى المسجد أثناء الصلاة ، فى الصفوف الخلفية ، فجلبابه البالى المتسخ ، لا يسمح له بحشر نفسه بين وجهاء القرية فى الصفوف الأولى التى تلى الإمام مباشرة ، وهو لا يتذكر أبدًا مع أنه يمارس الصلاة منذ أكثر من عشرين سنة أنه صلى فى الصفوف الأولى ، لكن هذه المرة فى صلاة الظهر ، خرج الرجل على قواعد البروتوكول ، ووراء الشيخ القزمازى مباشرة ، أدى الصلاة ، وبعد التحريم وخلافه ، خرج المصلون ، ولم يبق إلا منصور وفضيلة الإمام ، وخادم المسجد ، وتقدم منصور ، على استحياء .

- ألا ياسيدنا الشيخ .

- خير يابنى .. خير .

- أنا كنت عاوز قرشين لحسن الواد ..

وأراد الرجل أن يستطرد فى حكاية طويلة ، إلا أن الشيخ القزمازى قاطعه :

يا ابنى كنت أرجو أن أنال ثواب إقراضك ما تحتاج ، فالنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « مَنْ فَرَّج عن أخيه كربة ... » وأدرك عم منصور بفطرته الصافية أن الشيخ ظنه يطلب سلفة ، فبادر موضحًا .

- أنا عاوز أبيع قنطار ونصف صيفى .

- تبيع قطن صيفى ، أين أرضك ؟

- فى حوض الجميزة .

- أرض جيدة ، ولكنى سمعت أنك تريد تزويج ابنك ، فأنت ستحتاج لمبلغ كبير ، وأخشى ألا تستطيع تسليم القطن .

وأخذ الشيخ القزمازى يحاور عم منصور ..

وعندما خرجا من المنزل كان فى جيب عم منصور ثمن قنطار قطن ، وشىء آخر ، هو من باب الاحتراس كما سماه الشيخ القزمازى ، عقد شركة فى الجاموسة ، فيه أن الشيخ دفع نصف ثمنها ، وأن

منصوراً ملزم بالمحافظة عليها ، وعدم التصرف فيها ، إلا برضاء الطرف الأول ، وهو طبعًا الشيخ القزمازى الذى دعا لمنصور أن يبارك له اللَّه فيما هو مقدم عليه ، أما منصور ، فأغلب الظن أنه لم يسمع دعاء الشيخ ، فقد كان يستعرض أسماء الفئة التى تشترى القطن على أجل ، وله من استعراضه غرض ظاهر ، هو أن يختار التاجر الذى يتوسم فيه بعض الطيبة ، وإمكان انتظاره استلام القطن لعام آخر ، فليس من الممكن أن يتوافر عنده قطن يكفى تسديد الإيجار والوفاء بالكمية التى باعها على أجل .. وبدا له أن ليس فيهم من يفضل على غيره ، فكلهم أولاد كلب ؟

واستقر على أن يذهب إلى عبد الرسول ، ابن العمدة ، تبقى معرفة ، ويمكن يحتاجه فى كده والا كده .

وبعد صلاة العشاء حملت عم منصور قدماه إلى بيت العمدة ، ليقابل عبد الرسول أفندى ، ولم يمهله عبد الرسول حتى يتم حديثه ، بل أخبره بأنه يعرف كل شىء مقدار ما باعه للشيخ القزمازى . وعقد شركة الجاموسة ثم قال مستعجبًا :

– لكن ياعم منصور ، والجاموسة دى الوقتى مش بتاعتك أخويا له فيها النص ، والنص بتاعك بعته للشيخ القزمازى .

– أبدًا واللَّه ، أنا مابعتش النص بتاعى ، دا بس من باب الاحتراس .

– احتراس إيه يا حمار ، هو المحاكم عارفة احتراس والا ما احتراسشى ، قدامها فى الورق انك بعت وخلاص .

– يا سيدى ربنا يجيبها سليمة ، وإن شاء اللّه أسلمك أول ما اجمع .

وعبد الرسول – كتاجر – خبيث أصيل ، هو يطلب ضمانًا للوفاء ، والجاموسة لم تعد ملكًا لمنصور وخاطب نفسه «والمفلس يغلب السلطان» واحتج منصور الطيب على وصفه بالمفلس ، وقال إن خير ربنا كتير ، ولم يهتم عبد الرسول ، فقد كان يطلب ضمانًا لدى منصور لا عند اللّه .. ثم فجأة :

– عم منصور ، انت عاوز تبيع قنطارين قطن صيفى ؟

– أيوه يا سيدى ، قنطار ونصف ؟

– اسمع من باب الاحتراس ، تبيع لى الأوضة بتاعتك اللى على الشارع .

– يانهار اسود .. أبيع بيت ابويا ياسى عبد الرسول .

– يا راجل اعقل .. دا مش بيع دا من باب الاحتراس .

وانت بتقول هاتسلم يوم ماتجمع القطن . وساعتها خد كل أوراقك .. وفى استسلام وقَّع بختمه أو بالحتة الصفيح ، كما سماها هو ، لعبد الرسول ، وقبل أن يضع ثمن قنطار القطن فى جيبه كان قد تعهد بتسليم عبد الرسول قنطاراً ونصف قنطار قطن ..

وشىء هو من باب الاحتراس أيضًا ، عقد بيع الحجرة التى تطل على الشارع والتى يحدها من الغرب فلان ..

... انتفخت أوداج سلامة ، فلن تتندر عليه بنات القرية بعد الآن ، ولقد أثبت رجولته وسيتزوج فاطمة بنت الشيخ عطية ، سيد أسياد البلد ، كما سمته نظيرة ، والرجل الذى لا يساوى مليمًا ، كما يراه عم منصور .

أما الشيخ عطية نفسه عند تحديد المهر ، فلم يكن أقل من على ابن أحمد أو فلان وفلان ، ويردف قائلا : « وعلى كل حال يا شيخ منصور ، كله راجع بيتك » ويرد منصور ، يا شيخ عطية ، نسبك كفاية ، هيه الأصول ضاعت والا المسألة فلوس بس « واثمر رد منصور، فقد قنع الشيخ عطية بما يحمل منصور من فلوس هى ثمن ما باعه من قطن ، وبقيت أشياء صغيرة ، كام أقة بطاطس ، وكام رطل طماطم ، وكيلة رز أبيض ، مطالب كلها بسيطة ، يقدر عليها عم منصور بلا إرهاق ، أما الشىء الذى يعجز عنه حقا ، فهو أتعاب المأذون وحمل الرجل الهم ، فسيرجع مرة ثانية إلى الشيخ القزمازى فهو بلا حسد ، إمام وخطيب ومن ذوى الأملاك وتاجر ومأذون القرية السعيدة ، ومرة ثالثة باع منصور ربع قنطار قطن ، ولم يقبض من ثمنه هذه المرة شيئًا يذكر .. وقبل أن يمر أسبوع المهلة ، كان بيت الشيخ عطية يعج بالناس الرائحين الغادين فى وسط الدار ، أما علية القرية ففى مندرة الضيوف يضيئها كلوب غانم الحلاق ، وفى خارج الدار اجتمع النسوة يصفقن ويغنين

« ليه يابن عمى تتجوز عليه » .. فيرد الفريق الآخر من النساء « بجوز عليكى من وسخ رجليكى .. حتى واغسليهم وأنا أرضى عليكى » .

والجميع فى انتظار الشيخ القزمازى الذى يحضر على مهل ووقار وقد سار خلفه بعض أهالى القرية يحملون دفتر القسائم ودواية الحبر والريشة ، مكتوب عليها بخط ممسوح « الحكومة المصرية » ، وقبل أن يبدأ يصر على سؤال فاطمة عمن توكله .. ويضع سلامة يده فى يد الشيخ عطية ويخرج فى شهامة منديلا جديداً ، يفرده فوق اليدين المتشابكتين ويردد الشيخ عطية وسلامة كلمات السحر ، وراء المأذون وحالا يحل الحرام ..

ولا ينسى الشيخ قزمازى أن يتسلم المنديل الجديد ويدسه فى جيب الكاكولا .. وتنطلق الأعيرة النارية ويميل الشيخ قزمازى على عم منصور .

– مبروك ياعم منصور .

– ...

* * *

الليلة الجاية

صيف ٥٨

الشمس . هناك . على مدد الشوف ، كحفرة مملوءة بالأوالح المتوهجة .. وهى لقربها ، تستطيع – كما يقول عم زناتى – أن تخطفها بيدك .. أبو قردان عائد ، ليقضى ليلة فوق أشجار الجميز العجوز حول قريتنا ، جماعات ، جماعات ، كأثواب القماش الدبلان تحملها الرياح .. فى الحقل ، خرج الناموس من الأدوار السفلى لأشجار القطن ، يملأ الجو طنينًا كئيبًا ، ولدغًا موجعًا .. سكك الغيطان تشهد حركة نشيطة . الجاموس والبقر مسحوب إلى الغيطان ، أكياس الدريس فوق الحمير .. عدد السواقى مربوطة بالأحبال .. نساء وأطفال ورجال ساحبون راكبون ، حاملون .. حركة فى حقول قريتنا .

... الجدع زيدان ممتطيًا شجرة الصفصاف ، ويضرب بفأسه فرعًا ناشفًا ، وتكاد تسمعه يحدث نفسه « ده مش فدان قطن اللى هانبات له عند الساقية جمعة بحالها ، منعرفش نسقيه » .

صوت عم زناتى ، يأتى من الجانب الآخر لمدار الساقية ، يحذر الولد زيدان ، من أن ينكسر الفرع الذى يركبه ، ثم لنفسه « يعنى القطن هايجيب ولد .. قطيعة ، واللّه ما يجيب تكاليفه » ، ثم يأمر فهمى ، ابنه الثانى ، أن يرمى للجاموسة علفة دريس ، ويتأكد من رباط الحمار

فى الوتد ، فالليل داخل ، والحمار مشاكس ، كثيراً ما رجع إلى الدار وحده ، وتركهم فى الغيط يوسعونه شتماً وسبا . ويهدأ عم زناتى قليلاً ، ويخرج من جيب جلابيته علبة السجائر سمسون ماتوسيان – وفى سره – « واللّه ياربى ما بيكيف » ويفتح علبة الكبريت فيجدها فارغة ، ويتذكر أنه نسى أن يطلب عودين كبريت من الشيخ سليمان البقال ، وهو يشترى السجاير... ويلتفت حوله بحثًا عن فرحات جاره فى الأرض، والذى سيتسلم الساقية بعد أن ينتهى هو من رى أرضه ، فلا يجد إلا بقرة فرحات مربوطة بجوار غبيط الدريس ، وعزال الساقية الخاص به ، أو قل إن بعضه يخصه ، والآخر استعاره من ناس جيرانه فى الدار ، ويسأل عم زناتى ، ابنه فهمى ، عن فرحات ، فيجيبه فهمى .. راح الدار يتعشى ، ويجيب له كيس يتغطى به .. ففرحات فلاح واع ، يعرف جيداً ، أن ليس خيراً من الكيس غطاء ! عند الساقية . فى الجو الملبد بالناموس ، فشعيراته تمنع الناموس من الوصول إلى الجسد ودس إبرته فيه .. وتهتز السيجارة بين شفتى عم زناتى ، وتنتقل إلى أصابعه ، وهو ينادى رشاد ، الذى لا يجيب ، فرشاد أخبره الخفير بأن الترعة ، ستفيض الليلة على الجسور ، وسيروى قطنه الذى مات من العطش ، واستعداداً لوصول الترعة ، كوع رشاد ، بجوار الساقية المجاورة لساقية عم زناتى وشركاه .. وضاق خلق عم زناتى بحثًا عن ولعة سيجارة، وزعق فى الولد فهمى ابن الكلب ! « يعنى مش عارف أولع السيجارة ؟ » .. « ساقيتان فى البر ده وساقيتان فى البر التانى وعند

كل ساقية بدل الراجل خمسة .. ومش لاقى أولع السيجارة .. أيام سودة بصحيح . مش كفاية القطن فات أربعين يوم ماشفش المية .. لما بأه يصعب على الكافر » ثم أردف « ياواد يافهمي ياابن ستين كلب شوف لى ولعة سيجارة من تحت الأرض » ، وتمتم فهمي – فى سره « أصل الناس لما بتكبر بتخرف » ، واتجه فهمى إلى البر الثانى للترعة ليسأل عن كبريت ، غير أن الولد الفطن ، قبل أن يخرج من قلب الترعة الجاف ، شم رائحة ما ، هى بالتأكيد رائحة الشرب الناشف يمتص سيل الماء ، وحانت منه التفاتة ...

فشاهد الماء مقبلا يتهادى ، ورقص قلب الفتى كما كان يرقص ليلة أن ابتسمت له سجيدة .. والحق يقال إن رؤية الماء فى الحقل بهجة وفرح .. حتى أن فهمى نسى حكاية الولعة ، وهتف « وله يا زيدان .. وله .. المية جت » وقفز زيدان من فوق فرع الشجرة ، بعد أن ألقى بالفأس بعيداً .. وأسرع عم زناتى وأخرج علبة السجائر من جيبه .. وأعاد السيجارة إلى قاعدتها ، ورشاد ، الذى داسه الحمار مرة ولم يستيقظ هب مذعوراً ، والجماعة المعسكرون فى البر الثانى .. التقطوا هم الآخرون ، بشرى قدوم الماء واتجه الجميع إلى صوب قلب الترعة .. يتأكدون من صحة الرواية . فالرواية لو صحت لكانت معجزة .. فهذه السواقى الأربع المنحوسة ، تقع فى آخر الترعة ، ولا يصلها الماء ، إلا بعد أن يمر على عدد بلا نهاية من السواقى ، ولقد تحققت المعجزة ، ووصلت المياه تحمل معها أعواد القش وفروع الأشجار ، وجثتين

أحدهما لكلب ، ذلك أن جثث الحمير التى نفقت لم تستطع المياه وهى مازالت ضعيفة على حملها .. فتلك سيئة أخرى يتحملها عم زناتى وجيرانه ، إلا أن ماء الترعة لا يصل إلا بعد أن يشبع منه الجميع ، فهو عندما يصل يحمل إليهم تشكيلة من الجثث - شهادة للّه - لا تسر الناظرين .

وعلى الفور ، بدأت الجلبة البنى آدمية ، فى هذه البقعة النائية ، فى نهاية ترعة بلدنا ، بدأت العمل ، البهائم سحبت فى قسوة وعجلة .. ودارت السواقى واندفعت المياه تشق طريقها إلى شجيرات القطن .. وتوزعت الاختصاصات ، زيدان ، الولد الكبير ، حمل الفأس ، وسار أمام ما تصبه الساقية من ماء يقذف الحجر بعيداً ، ويقتلع ما فى المجرى من حشائش ، يرفعها على حافتى المجرى وتسير المياه مدندشة كالعروس ، على دندنة سى زيدان ، الولد فهمى خلاص ، البحث عن ولعة للسيجارة لم يعد من اختصاصه ، عليه أن يمسك بالفرقلة ويلف حول الساقية وراء الجاموسة ، فإذا ماتوانت طرقعت الفرقلة على ظهرها محدثة صوتاً كانطلاق البارود وتاركة على ظهرها شريطاً من أثر الضربة ، ويعاودها ما فاتها من نشاط ، ويتناوب عم زناتى من بعيد - إحساسان : الأول ، غضبه من أجل ضرب الجاموسة ، الثانى ، فرصة ، أن الولد فهمى ، ابنه ، كبر وبلغ مبلغ الرجال . واستطاع استعمال الفرقلة ويكاد الإحساس الأول يتغلب ، ويستعمل لسانه فى تأديب ابن الكلب ، أى فهمى ابنه ، لولا أن يأتيه ، صوت الولد فهمى يردد

«سبع سواقى يدوروا ماطفوا لى نار .. يامنية القلب قل لى .. ازاى عشق الجار ، يبقى النظر فى النظر ، والقلب قايد نار » وتتحول الشتيمة إلى زومة مسموعة ، ويتذكر عم زناتى ، على الفور ، أيام ما كان فى مثل سن ابنه فهمى ، وسمعه أبوه يشدو بالكلمات إياها ، ولحقه بكف غليظة على قفاه أوقعه أرضًا ، وهو يقول له : « حتى انت يا مفعوص » وتحسس عم زناتى قفاه ، دون قصد ، وقال ، دون أن يلاحظ « بلاش ضرب الجاموسة ياابن ستين كلب .. سبع ضربات تلهفك يا مفعوص » وهبت نسمة قوية ، سطلت عم زناتى ، وسرح .. أيام المرحوم أبيه كان يرفض استلام الأرض لزراعتها . عيش الشعير ، علف الحمير هذه الأيام .. الجلاليب الزرقاء . على اللحم .. و .. و ..

وانتقل إلى حلم ، الولد زيدان ، خلص رى الأرض من الدماغ للرأس وينادى ، حل الساقية يا فهمى ، حل الساقية ياوله ، ويتقدم هو عم زناتى ، يقف على مدار الساقية ، بهدوء يوقف الجاموسة ويحل غماها .. يمسك بالدشيدة ليرفع الناف عن رقبتها .. مخاطبًا نفسه فهمى م نام من زمان ، هم أولاد الأيام دى يعرفوا سهر والا شغل ، الجوزة قطعت نفسهم .. وتوقظه ، فى رعب ، عم زناتى نفسه ، طرقعة فرقلة فهمى يسوق الجاموسة ، وخيل إليه هذه المرة أنها طرقعة مدفع واستيقظ عم زناتى حانقًا ، يلعن فى سره هذه المرة ، الولد العفريت ، وضايقه أنه هو الذى نعس ، لا فهمى ابنه .. كما كان .. يحلم .

ومن جديد ، أخرج السيجارة ، وحانت منه التفاتة إلى البر الثانى للترعة ، وشاهد بجوار كل ساقية ، كومة نار ، وسحابة كثيفة من الدخان ، هى بلا شك لطرد الناموس ، ولا يقى من يبيت بجوار الساقية ليلا ، من الناموس ، إلا نسمات الهواء ، وسحابات الدخان .. وتحرك عم زناتى بنفسه هذه المرة . يجمع فروع الصفصاف التى كان زيدان قد قطعها ، وبجوار الحفرة التى أعدها للنار ، بدأ يكسر الفروع إلى قطع صغيرة ، استعداداً لإشعال النار ، وتدخين السجاير وإبداء الملاحظات لابنه فهمى ، ولإقلاق فرحات ورشاد ، شركائه فى الساقية ، والعزومة على جيرانه عند الساقية الثانية ، وربما على رجال الساقيتين المقابلتين فى البر الثانى بكوب شاى « يسهركم للصبح والنبى ياولاد » .

ولكن عم زناتى سمع شيئًا ضايقه ، هو بالتحديد ، صوت ارتطام حوافى عيون طمبوشة الساقية بما فى البئر من ماء ، وكما تعرف ست البيت وهى فى الحجرة أن جاز الوابور فى المطبخ ، قد نفد من صوت تشخيره ، فكذلك ، عم زناتى ، عرف أن هذا الصوت له دليل واحد ، هو أن ماء الترعة قد انخفض ، وأن الساقية موشكة على الوقوف ، وأن كمية الماء التى تنزحها الآن ، تضر القطن أكثر مما تصلحه ، حيث إن رى الأرض سيستغرق أيامًا ، يصفر القطن أثناءها وتتهدل وريقاته ، وأسرع الرجل الخبير إلى شاطئ الترعة ، ليرى بالعين ما نبأه عنه السماع ، وهناك عرف الخبير اليقين أن ما بالترعة من ماء لا يكاد يكفى ساقية واحدة ، فما بالك ، وهو موزع على سواق أربع .. ولم يملك عم

زناتى وقد تصور ما لحق القطن من خسارة ، سوى أن ينادى بما يشبه الصراخ « ولاد .. ولاد » وتجمع الأولاد على استغاثة الليل ، فهمى متسائلا فى خوف عما حدث لرشاد وفرحات ، وهب كل من عند الساقيتين المقابلتين فى البر الثانى ، على صوت عم زناتى .

... وعندما اجتمع الرجال حول الترعة .. راعهم مقدار التناقص المتزايد فى منسوبها ، وبدأت التعليقات حزينة ، ساخطة ، ساخرة شاتمة ، لاعنة ، وكلها منبعثة عن إحساس واحد ، الغيظ المكظوم وانتهت التعليقات إلى مرحلة أخرى ، الاقتراحات ..

– نلم على الفدان نص بريزة ونبعت تلغراف لبتوع الهندزة .

– لا – وكان المتكلم أزهريا خائبًا – مش للهندزة ، لتفتيش الرى .

– هو ده وقت الحنبلة ، يا شيخ تابعى الهندزة هى تفتيش الرى وتفتيش الرى هو الهندزة .

– يا جماعة ما احنا غلبنا تلغرافات .. عملوا إيه ؟

– يعنى نقعد ساكتين لما القطن يموت قدام عينينا ؟

– وهزت الجميع كلمات .. موات القطن ، ونقعد ساكتين ، ونفر عم عيسوى ، من رجال البر الثانى ، نفرة من نفراته .

– نبعت تلغراف للحكومة .

– هى الحكومة هاتعمل لكو إيه ؟

– شوفوا يا جماعة الكلام .. هيه الحكومة لازمتها إيه إن ماكتش تجيب للقطن ميه ؟

وأسهم زيدان الذى جاء من ذيل الأرض . بعد ما انقطع الماءُ عن الوصول إليه .

– يا جماعة وانا تحت فى الديل . كت سامع حاجه زى تكتكة وابور .

– بس .. لا تلغراف ولا حكومة .. مكنة الحاج طاهر .

عم زناتى لابنه « ياتك الغم .. انت مالك ياواد وما لمكنة العمدة » .

– إلا ماله ومال مكنة العمدة . يا راجل الخوف من اللّه واسع .. هو ان كان الحاج طاهر شارى لك جاموسة بالمقاومة .. هو القطن إن ضاع هاتعرف توكلها .

– يا جماعة عن نفسى – وكان الصوت لفرحات – أنا مكسور له من السنة اللى فاتت فى خمسة جنيه ، غيرهم السنة دى بستة جنيه ونص واصلهم كانوا شوال كيماوى ، بتلاتة جنيه ، وده غير كيماوى وبذرة السنة دى . يعنى لو اشتكانى حيبَيّعنى الدار ، ولكن وحق شباك سيدنا النبى ما اسيبه ياخد شوية المية اللى جايين لوحده ، واهتز زيدان .

– يسلم يمينك ، يا جـار الهنا ، يله بنا يا جـمـاعـة على المكنة نكسرها حتت ، احنا كلنا مجرحين له ، أنا عارف ، ربنا سايبه ليه ده ماتقول يا شيخ تابعى .

– ياواد بلاش جهل ماتعترضش على حكمة ربنا .

– يلاً بنا يا جماعة .. يلاً .

وكانت فأس زيدان فى يده فرفعها على كتفه ، والولد فهمى شال فرع صفصاف ، وفرحات فأسه ، ورشاد عصاه أم جلبة حديد فى أسفلها ، والتى ضرب بها ذات ليلة قط براوى ، فانقطع نفسه ، وعم عيسوى فرقلته ذات السوط ، وحتى الشيخ تابعى طالب الأزهر الخائب ، فى يده عصاه أم يد معقوفة .. نهايته ، كل من الجماعة شد قبضته على مافى يده .. وتحركوا نحو المورد ، تحرك العطاش تاركين الأطفال دون قصد أو تدبير ، لحراسة البهائم والغيطان .

– اضرب طلقة فى الهوا يا واد يا حسن .

– دى بندقية الحكومة يا حضرة العمدة .

– ياتك داهية أمال انا عارف إنها بندقية امك بهانة ، هو انتم يا غفر شاطرين إلا فى طواجن اللبن وأناجر الفته .

– اضرب نار يا واد يا حسان .. بس اوعى تصيب حد يا صعيدى تبقى قضية ومحامية ودوشة دماغ .

ورد عم عيسوى ، هايضرب مين ولا مين يا حاج طاهر ، وارتج على الحاج طاهر : انت بتتهجم علىّ يا زناتى .. واللّه لابايع الجاموسة من الصبح .

واغتاظ عم زناتى « يا راجل هو انت ربنا قطيعة الجاموسة على صاحبها » ثم لابنه « اسكت يا ولد يا زيدان بلاش شتيمة » .

وتدخل فهمى بصوت ضائع فى الهيجة مهدئًا العمدة ، بأنه سيذبح له الجاموسة قبل بيعها ، وفرحات يقسم بالطلاق أن موته الليلة كوم وتكسير الوابور كوم آخر .. وانطلقت رصاصة فى الجو .. وتسلل ولد وألقى بفرع سنط أمام الخرطوم الذى جذب ماء الترعة كله ، وعلا الضجيج ، ولم يستطع الحاج طاهر أن يميز الأصوات ، بعضها يشتم والآخر يهدد .. وغيره يطالب بتقسيم الماء .. ورابع يقترح أن يقف الوابور وتدور ساقية والشيخ تابعى سيبرق لوزير الداخلية ولوزير الأشغال العمومية .. والترعة تقف فاصلا بين الفريقين وصاح جدع من رجال سواقى البر الثانى :

– بس يا جماعة .. عاوزين نتفاهم .. ده برضه حضرة العمدة ، ولكن جدعًا آخر ، أمسك بحجر وحدد مكان الوابور فى الظلام وبعزم أبيه وأمه والبنت التى سيتزوجها من ثمن القطن ، وقذف بالحجر . وكان آخر صوت . تقطع أسلاك ، وتحطم أشياء صلبة . ووقف الوابور ..

وتجمع الماء فى الحفرة التى أمام الخرطوم ، ثم اندفع يشق طريقه صوب العطاش ، بين فترة همود على الشاطئين .. وتكلم العمدة . شاتماً الخنازير الذين يعرفهم واحداً واحداً .. وصمت الخنازير ، وهو لا يعرف من هدد ومن سب ، ومن شتم ، بل هم أنفسهم لا يعرفون كيف حدث أو ماذا حدث بالضبط ، كانوا كعنين انتهى توا من مواقعة امرأة .. فهو فى دهشة واستكثار واستغراب ، بل وتكذيب لولا أنه قد حدث .. حدث فعلا .. وكان قائماً .. كذلك الوابور الجريح .

وهم الحاج طاهر ، أن يبعث فى إحضار الوابور الثانى ، مع الفوانيس والكلوبات تجعل المكان مثل الظهر .. لولا أن قلبه لم يطاوعه من الداخل .

وفى الصباح ، أضاءت الشمس الحقول .. وأصبح عم عيسوى هو هو عم عيسوى وليس عم زناتى .. وتكتك وابور من جديد .

وعند مرور أهالى قريتنا على حقل العمدة لم يصدقوا الحكاية التى ما زالت ساخنة ، فقد كان عم زناتى وعم عيسوى وفرحات يفسحون القناة أمام ما يقذفه الوابور من ماء الترعة فى غيط العمدة ! وعندما تجابههم الرؤية بما يحكونه ، يتلفت بعضهم إلى بعض فى سذاجة قوية ظاهرة ويقولون : مين عارف اما ييجى الليل هايحصل ايه ؟!

* * *

الليـل الرحــم

(١)

.. الأظلاف الستة عشر تضغط وجه الأرض فى قبلات متلاحقة . ثقيلة ، تاركة خلفها صفين من الأقواس الهلالية .

سلاح المحراث يشق سطح الأرض . قبل أن تندمل شفيرتا الخط المشقوق يسقط وسطه سرسوب منتظم من حبات الذرة فيلتئم عليها - كالرحم - يتهيأ لميلاد جديد .

كف عم الوهيدى اليسرى تمسك بيد المحراث خشية أن يسيخ أعمق من العمق الذى يريده لإنبات الذرة . يمناه تضم أحبالاً طويلة تنتهى إلى آذان بقرتين سوداوين ، يخلص نسبهما بحكم المجاورة فى الزمان والمكان ، إلى نسب عم الوهيدى . بالأحبال الموصولة يعيد الرجل البقرتين ، أو إحداهما إلى الخط إذا ما عن لأيهما أن تنحرف عنه .

على الكتف اليمنى ، تستقر قلقة فرقلة تلسع - عند اللزوم - الجلد الأسود الغطيس ، وهنا يبذل العجوز مجهوداً منتبهًا : ليحفظ توازن العمق والاستقامة للمحراث ، وليشرخ ظهر الحيوان بالسوط ، وقبل أن يفلت منه واحد من خيوط العملية ، يرتفع صوته مخاطبًا واحدة من البقرتين يميزها بشدة ودودة من أذنها .

- لأ .. ارجعى .

وترجع البقرة بعد أن تنفض رأسها نفضتين : علهما تململ أو مشروع تمرد مضى عليه ستة آلاف سنة ولم يتحقق ، على أنهما - النفضتين - لا تخلوان من عتاب دينى صامت مستسلم قدرى حزين .

على هذه الأرض نفسها رعى عم الوهيدى جاموسة المرحوم أبيه ، كانت الأرض هيشة ، تغطيها أعواد الغاب الرفيع وأشجار الطرفة والسمار ويفرش سطحها حصير من النجيل والحلفاء ، وفى الحوافى شجيرات السريس والجلاوين ، ويركد دائمًا عمق إصبعين من الماء يسمح لسمكة أو ضفدعة أو ثعبان مائى أن يعمر بالحياة سطح الهيشة .. ويحار العجوز ، الآن ، كيف أن الآباء الهبل تركوا أرضًا واسعة كهذه هيشة ، لمجرد رعى الجاموس الأعجف والبقر الناشف . لم يقتنع بينه وبين نفسه أن الأرض يفصلها عن البلد مشوار طويل .

كان صغيراً لا يستطيع أن يرفع مقطف السباخ إلى ظهر الحمار يوم تعارك مع الواد بركات ابن ستهم . يومها اتلم العيال - تاركين البهايم تنحت أوراق النجيل . خلصوا رقبة بركات من قبضتى الوهيدى « بقوله روحى لى ياهوه » ..

- كانت الأرض دى كلها هيشة يا سيدى الوهيدى - السؤال من امرأة ابنة عبد الشاطر . مناسبة من تلك التى ينتظرها عم الوهيدى ليفىء عليها مما رآه بعينيه هاتين .. البلد ، أكوام السباخ ، الدور التى

كانت تشغى بالرجال والخير وصفصفت على امرأة ، بيوت عائلة السوالم ، التى سمع من أبيه أنها قامت كالنبات الشيطانى ، أسماء الصف الطويل من نظار الوقف . لكن الوهيدى – اليوم – لا يصلح لاسترخاء المصطبة ، ولف السيجارة ، وولعى يا بنت عودين حطب فى الطاجن ، وهاتى كنكة القهوة وفنجان البيشة .

التفت الرجل إلى امرأة ابنه ، الجهامة المنبسطة التى استأثرت بتفاصيل الوجه .. مطلة . تجاهل السؤال عن تاريخ الأرض . استفسر عن كمية تقاوى الذرة المتبقية ..

عندما استدار المحراث يشق الخط الثانى كان عم الوهيدى قد قارب على الانتهاء من حرث أرض الهيشة وتحويلها إلى حقل ، طاوياً دون قصد صحيفة ربما هانئة ورخية من حياة الهيشة ..

أدار البهائم .. فى وسط الجسر الذى أقامه السيد أبو دراع ، سلط عم وهيدى سلاح المحراث . شخلل بالفرقلة . الأظلاف غاصت فى الأرض لترفع الحد بين أرض عم الوهيدى وساحل السيد أبو دراع .

من وسط الهيشة التى غدت حقلا ، رفع عبد الشاطر ظهره . كان يعالج بصبر خلع جذور الغاب . قبل أن ينحنى لمح المحراث . البقر يتعثر فى شق الحد .

– واد .. واد يافتح اللّـه .. عليّ الطلاق أبوك أشطر راجل فى البلد.

فتح اللّـه لا يرد . الشغل لم يدعكه . فلاح خفافى . ظهره يكاد ينكسر نصفين . مع أنه يعمل فى أرضهم لكنه ينتظر غطوس الشمس . على أنه – فتح اللّـه – حقيقة لا تهزه صفة الشطارة ، فى أبيه بالذات ، ومن أخيه عبد الشاطر على وجه أخص . فى أعماقه أن أخاه عبد الشاطر – بشعره الأسود الهبابى الخشن يغطى جسمه ورأسه ووجهه ، بكلماته القليلة المتقطعة – جنس آخر . دون أن يشرح عم الوهيدى فكرته من ضم قطعة الأرض التى يزرعها السيد أبو دراع ، فهم عبد الشاطر كل شىء . ليس بالتحديد فهم ، أحس الفكرة ، كالجسم المقرور يحتمى بحجرة دافئة تلفحه كل حرارتها . إضافة ساحل السيد أبو دراع تخلق حقلا مربعًا يستهوى الشهوة والفتنة فى روح عم الوهيدى ، كما تستهويها فى روح ابنه عبد الشاطر ، الوهيدى الثانى .

عبد الشاطر لم يتذوق ما يمكن أن يسمى معارضة أخيه فتح اللّـه لفعلة أبيه . عبد الشاطر لا يدرى إتيان ما يشكل دفاعًا عن فعلة أبيه . إرادة أبيه كسقوط المطر ، كموت طفل صغير .. اللهم لا اعتراض .

– جاتك الغم ياد يافتح اللّـه .

أحس عبد الشاطر حيود فتح اللّـه .. تضايق .

– واد يافتح اللّـه .. أقولك .. واللّـه .. ما انت نافع .

أمسك عبد الشاطر بذقنه ، تغطيها إبر الشعيرات كجلد القنفذة .

الخط الثانى شقه عم الوهيدى فى ساحل السيد أبو دراع .

حامد لمح السيد أبو دراع مقبلا جريًا قاصدًا عم الوهيدى .

– حوش ياعم عبده !

قبل أن يصل السيد أبو دراع إلى عم الوهيدى كان سوط الفرقلة قد لف حول رقبته ، وقبل أن يقذف السيد أبو دراع السكينة الطويلة أم حدين والتى يربطها دائمًا على اللحم لصق فخذه ، كان عبد الشاطر قد أحاطه بذراعيه من الخلف . كانت فأس قد هوت على رأسه ، وانبثقت نافورة دقيقة من دم أحمر . التقت عيون فتح اللّه وحامد . مذهولين ، كل يسأل الآخر مرتعبًا .

فك عبد الشاطر ذراعيه . سقط السيد أبو دراع . ابن الليل التائب .

أجال أبو دراع فى من حوله من الرجال عينين مغبشتين . رآهم .. لا بسبب انعكاسهم على إنسانى عينيه ، علها صورة قديمة تخيلها وانبعثت من داخل مخه كما انبعثت على طرف لسانه أو من مراكز النطق من مخه جملة أعدها قبلا .

– معلهش .. جزاة اللى يعيش نعجة بين الديابه .

(٢)

فتح اللّه تنقله الخطوات الحائرة . الليل يقارب أن ينتصف . فى عينيه الظلام رفع الفاصل بين البلد والحقول ، بدت له الجهة كلها قطعة بلا نهاية من السواد ، الدور ذاتها نامت ، الكلاب على السطوح وفى الحارات تتناوب النباح .. تترصد الغرباء والذئاب وسيدنا عزرائيل الذى يهبط ويقبض الأرواح . العفاريت انطلقت من عقالها تحت الأرض . القطط والكلاب والأرانب التى تتسل من أركان الحارات ومن فوق أكوام السباخ والتنفس الذى يسمع ولا يرى مصدره .. حقيقتها فى يقين فتح اللّه عفاريت متخفية . فى القاعات المغلقة . الرجال والنسوان والعيال فى سابع نومه . على المصاطب المسطوحة ، على قباب الأفران ، على الحصير ، على قش الأرز ، المهم أن عيونهم أغلقها النوم ، واستسلمت أجسامهم للراحة . خارج الدور لا حياة لغير القطط والكلاب والعفاريت والذين تعكرت دماؤهم ولم يصاحبوا الفراخ فى استسلامها للنوم من غطسة الشمس .

.. من خلف جسر المصرف انحدرت عصبة من الرجال ، بندقية ميزر معلقة فى كتف كل منهم ، الجلاليب مقروطة عند الركب . ينسلون لا تحس بهم النسمة نفسها . اعترضهم كلب عم السبخاوى . تشممهم بصبص بذيله . تسلقوا السطح . سعل واحد منهم انتظاراً أن ينادى عم السبخاوى . البر أمان . أعطى الرجل الإشارة . هبط الآخرون .

كوز الشاى على قوالح الذرة المشتعلة فى الطاجن جوزة نحاسية صفراء سحبت . مع المعسل تحترق تعامير الحشيش . بدأ التحفظ على أولاد الليل . المطاردة - رغم كل أمان - دقات قلوبهم . عم السبخاوى . خفير الحكومة القديم - لم يفته قلق ضيوفه . قدم لهم الغريب - فتح اللّٰه ابن عم الوهيدى . فتحوا سيرة السيد أبو دراع . حزن بين أن يكون عميقًا أو مألوفًا - يرتسم على أوجه الرجال - إيمانهم أن القتل قدرهم . تطاردهم عقيدة أن من قتل يقتل .

فى انتظارهم الطويل للخاتمة يقتلون إذ يقع واحد منهم . الحزن ليس من أجله وحده . العقيدة اللعينة تطاردهم ، وتتحقق ، عم السبخاوى - هامش من هوامش رجال الليل لا يحس عمق كربهم . شد واحد منهم نَفَسًا من الجوزة . طرد الدخان من منخاريه كالبندقية أم روحين . وجه السؤال إلى فتح اللّٰه .. من قتل أبو دراع . فتح اللّٰه مأخوذ . بدا له جلساؤه من الرجال صورة خرافية لأبى زيد الهلالى سلامة ، الزير سالم . الصورة البشرية تملأ ملامحهم ، لكنهم أولاد ليل ، لا ينامون فى المغرب مع الفراخ . خال رءوسهم مخلوقة واقفة لا تعرف الانحناء لأحد . يستيقظون مع حلول الظلام . فى الليل الدنيا - لا الأرض - ملكهم . أحاديث أبيه مع السيد أبو دراع .. واللّٰه يا ابنى مافى أحسن من اللقمة الحلال .. الضحكة أطلقها أبو دراع مجلجلة . أبو دراع يطلق كلماته بلا خوف أو لجلجة . حلال والا حرام ياعم الوهيدى .. لا تؤاخذنى ، أنت رجل كوالدى ، يعنى عيلة السوالم

لامؤاخذة كانت الأرض أرض أبوهم . أنا سمعت وانت أدرى انهم ناس أغراب عن البلد . كل أهالى البلد شغالين عندهم . جابر افندى ابو سالم ياما ضربنى بالشلوت وانا بعزق فى أرضه بالفاس . بعد كده على الحرام ياعم الوهيدى بنفسه كان يقوم يولع لى السيجارة . ياعم الوهيدى إن عشت نعجة تأكلك الديابة . ياما اشتغلت فى أراضى أولاد الكلب . ناس تخاف ولا تختشى . عم الوهيدى لا يعترض ، لكن الحلال والحرام بينهما التفرقة جلية كالخيط الأبيض والخيط الأسود . اسمع ياعم الوهيدى .. أنا بلا زوجة ، لكن علىَّ الطلاق أرض اولاد الكلب حرام ، اسمع ، اسمع يا رجل يا عجوز .. رد على .. أرض السوالم تعبوا فيها ، عرقوا فيها ، كل أهالى البلد نسوان ورجال وعيال ، شغالة عندهم ، فين الحلال وفين الحرام . الرجل العجوز يدعك عقب سيجارة فى سمك فتلة دوبارة احترق حتى آخره بدعكه بطرف سبابته فى أرضية المنضرة . يلتفت إلى السيد أبو دراع . يشب من على الأرض ، انزلقت عباءته الإمبريال من على كتفه . لم يهتم بلمها . اسمع يا واد يا سيد ، اسمع ، رد علىَّ .. يعنى يا سيد عدت رجل ، يعنى يا سيد عدت بتفهم ، عدت بتعرف ، رفعت راسك ، رد علىَّ ، رد علىَّ يا سيد ، عينى فى عينك ، فهيم ابن زينة لما مسكوا مراته مع جابر افندى ابو سالم – وفهيم قام سم بهايم جابر أفندى ، مين قتل فهيم ابن زينة ، رُد ، رد علىَّ يا سيد ، عينى فى عينك . فتح اللّه لا يعرف بالتحديد من الذى قتل السيد أبو دراع . السيد أبو دراع كان رجلا ، لكن من قتل

فهيم ابن زينة . القلق المتسائل الذى يطوف بفكر فتح اللّه يعوزه التعبير عنه . كلمات أبيه تنطلق كطرقعة الفرقلة . انكر فى التحقيق أنك ضربت ، حامد هو الذى ضرب . حامد ابن الدار ، أمه طرف قرابة ، لا يهم ، إن كانت قرابة بعيدة . ولد وتربى كابن .. كان فتح اللّه يحب السيد أبو دراع . كان يستشعر نوعًا من الفرح . سيصيران جارين فى الأرض . سيسمع منه حكايات الليل . لكن ياعم سيد انت خلاص ، قصدى شغل الليل سبته ؟ لكن ياعم سيد من قتل فهيم ابن زينة ، مين قتل فهيم ابن زينة انتقامًا لحساب جابر أفندى . انت لست كأخى عبد الشاطر ، عبد الشاطر طيب ، راجل غيط ، يحب أباه موت ، يخلق الشغل فى الغيط من تحت الأرض ، قبل الفجر ديله فى اسنانه إلى الغيط ، راكب حمار ، ساحب بقرة ، الفأس فى يده كالسيجارة فى يدك ياعم سيد ، يحب طين الأرض أكثر من حبه لحريمه ، ومرة كان يتغدى وانسل عود برسيم مع اللقمة ، لم يرمه ، ضحك ، يا واد يا فتح اللّه كله خلقة ربنا ، البنى آدمين والبهائم والسريس والبرسيم .. فكرته الثابتة أن فتح اللّه خسران .

هانم – فى غندرة – تلقى تحية الليل على الرجال . الحديث الدائر عمن قتل السيد أبو دراع . فتح اللّه ، صدقونى ، لم يقتل السيد أبو درع . الذى قتل هو ولد شغال عندهم . حامد . فتح اللّه يؤذيه من دفاع هانم عنه وصف حامد بالشغال . حقيقة حامد ليس ابن عم الوهيدى ، ليس أخا لفتح اللّه أو عبد الشاطر ، هو يعمل فى الغيط

والبيت ، هو منهم أو ليس منهم مسألة لم تطرح على ذهن فتح اللّه ، لكنه لم يخطر بباله أن حامد شغال . وقف عم السبخاوى ووقف فتح اللّه . الصينية حملاها من على رأس هانم . بهدوء وضعت أمام الرجال . على طرف المصطبة جلست هانم تعد الشاى . دعت فتح اللّه إلى مشاركة الرجال الأكل . عاودت تأكيد اتهام حامد بقتل السيد أبو دراع . عم السبخاوى وقد فتحت له ابنته الطريق اندفع . حامد هو القاتل ، ولد ضائع بلا أصل ، بلا فصل ، ولدته امه فى بيت الحاج وهيدى ، ماتت وهو مفعوص ، فتح اللّه ابن ناس . عم السبخاوى يسترضى ابنته هانم بمدحه فتح اللّه . فتح اللّه لم ترقه الطريقة التى عرض بها الموضوع أمام الرجال . فهو لا يعرف من الذى قتل حامد سواء كانت فأسه هى التى ضربت أم لا ، واحد من العائلة . صمم على أن يدفع عن حامد الاتهام المؤكد .. الجرأة لا تواتيه . سكت .

الصمت الذى يلف الجهة كلها امتد إلى مصطبة عم السبخاوى داخل القاعة ، شخير عيال عم السبخاوى ، سمع من حجرة مجاورة ، طال الصمت . طلب أحدهم من فتح اللّه أن يستأذنهم . تدخلت هانم من القاعة الجوانية . خففت ما ظنته إساءة إلى فتح اللّه . ملعون أبوهم ، ليس فى الأمر سر ، وراءهم سرحة ، عينهم على مواشى واحد غلبان سيسرقونها الليلة . نددت بالرجال . فتح اللّه ليس غريبًا عن بيت السبخاوى ، مع أن الضوء ضعيف أو منعدم فقد لمح فتح اللّه سنة من أسنان هانم مغطاة بالذهب البراق تلمع خلف شفتيها .

(٣)

فى الصباح إذ أنكرت هانم أن فتح اللّه ينام فى القاعة الجوانية لم يكن قصدها أن تكذب على الرجل الكبير الذى تهيئ نفسها لأن تدور فى فلكه . خوفها من جهامة عم الوهيدى ألجمت لسانها . تخلى عنها تفاصحها . فتح اللّه بالداخل بين اليقظة والنوم خمن تقريباً ما حدث ، ثم قرصه صوت رشاد بن جابر أفندى يسأل هانم عن أخواتها . رشاد أفندى يشتم أولاد ستين الكلب . يتساءل مستنكراً ألا يسرحوا إلى الغيط دون أن يوقظهم من النوم عشرين مرة ، ويسوقهم من الدار إلى الغيط كالحمير .

تدخل هانم القاعة لا تدرى كيف تتحدث إلى فتح اللّه تريد أن تؤدى ما يشبه الاعتذار . سى فتح اللّه عارف . رشاد بن جابر أفندى كأهله . ناس لسانهم طويل . ملعونة لقمة العيش التى تذل الناس . السيد أبو دراع هج من وشهم . هانم اقترحت على أبيها أن يقطع علاقاته بجابر أفندى ، وأن يعمل إخوتها فى أراضى الفلاحين . كله عمل باليومية . عم السبخاوى اتهم ابنته بنكران الجميل . العمدة يا هانم خيره راكبنا ، شغل السبخاوى خفيراً فى الحكومة ، وانتقاه من بين الخفراء ، كان تابعه كظله . هانم تسقط هذا الجزء من دفاع أبيها عن جابر أفندى . يحس فتح اللّه أن فتاته محاصرة . لا يهم ، المهم انت يا هانم ، بعدك لا شىء يهم ، أمسك بيدها . تفحص وجهها . فيه

من أبيها سمرته ، من أمها صفرة باهتة . أحس به لامعًا نظيفًا . تطل من أعلاه عينان . أطال فتح اللّه التحديق . النور الساقط من فتحة السلم على صحن الدار منعكس على وجه هانم . العينان سوداوان . الحاجب رفيع . الرموش سوداء طويلة . الرموش تتلاقى وتنفرج . الكحل الأسود كان قد صبغها فى الصباح الباكر قبل أن يستيقظ . سألها هل تعرف أن عينيها حلوتان . هانم بين أن تقف عند الحديث عن حلاوة عينيها ، تخرج من الحفرة التى أوقعها فيها أبوها و إخوتها وأمها ، وبين أن تطلب منه أن يمر سريعًا . عليه أن يعرف أن فتاته مؤدبة . البنت ياسى فتح اللّه بأخلاقها . فتح اللّه يؤمن على الحكمة التى ألقت بها هانم . أمسك بيدها . تأمل عينيها . سأل هل حقا تحبه . هانم تعترض أن يرحل بها فتح اللّه بعد الزواج إلى بلاد بعيدة . رجل الليل بلا بيت . لا يملك نفسه . يخرج للسرحة لا يعرف متى يعود . وقد لا يرجع أبدًا . هانم .. ابن الليل رجل .. رحم اللّه سيد أبو دراع .. لم يعجبه حال عائلة السوالم مع أهالى البلد . هانم تعود يشدها خوفها . انت فين ياسى فتح اللّه وانا فين . هو يكره منها هذه اللغة أو هذه الكلمات . هى تلف بالكلمات تخفى بها رفضها متعللة بالغنى والفقر. الناس أولاد تسعة . ضغط على يدها . تأوهت ، سحبت ذراعها . خنقه صوتها الناعم المنغم الساخن كلسعة ضوء القمر . ضغط يدها . ركبها غضب مفاجئ . نشجت . انفجرت باكية . ليست واحدة من إياهن ، فقيرة لكنها تحافظ على شرفها . الحلال أحسن . ارتبك . تذكر اللحظة

التى فوجئ فيها برأس السيد أبو دراع مدشدشة بفعل فأس ، فأسه هو . فأسه أم فأس حامد .. بتحسسه الحابى ، هانم على حق . المرأة على غير زوجها حرام ، لِمَ لَمْ يتزوج السيد أبو دراع .. حرام أم حلال - ماذا كان سيقول السيد فى هذه المسألة . بارتباكه تقدم يعتذر إليها . هو يحبها . لا يفرق بين نظرة تمسح وجهها وصدرها ونهديها ، بين دقات صدره هو كالطبل إذ يسمع صوتها وبين يده تضغط يدها . خالتى نرجس فتحت باب الدار . عقب الباب المرتكز على قطعة صخر يلف فوقها . يزيق . مسحت هانم دموعها . لم تنظر إلى فتح اللّه لكنها كانت تراه . حدثته بصوت رائق ، صوت لا أثر فيه لدموع أو نشيج أو وعظ أو إرشاد . عليه ألا يزعل . هى الأخرى - بصوت خفيض - تحبه .

الأم حيت فتح اللّه بحفاوة . سيدة تربت فى بيوت الثراء . بيت جابر أفندى . يسرها إحساسها بقيمة أن يكون للإنسان أرض يملكها وجاموسة وبقرة وعلى سطح بيته كوم الذرة . شرفتنا ياسى فتح اللّه يا ابنى . أبوك راجل ولا كل الرجال . تبحث عن كلمات ترفع بها الحاج وهيدى عن حضرة العمدة . قدمت أرغفة ساخنة لفطوره ، إلى جانبه على المصطبة جلست هانم تنفخ فى القوالح تشعلها فى الطاجن . تعد الشاى . فتح اللّه لا يحب أن يشرب كرسى معسل على الصبح .. ليس كييفا منقوعًا . أين هو من أبيها السبخاوى ، الكييف الذى صاحب الجوزة قبل أن تولد هانم وقبل أن يتزوج الأم نرجس . يمسك القوالح

الملتهبة بين سبابته وإبهامه . يرصها على المعسل . يضغطها ببطن إبهامه . أحست هانم بوضوح باحتقار لفتح اللّه . استصغرته . ليس رجلا . أولاد الميسورين تنقصهم الرجولة دائمًا . أحست بعمق بنقيصة لا تغتفر فى أخلاق فتح اللّه . ألا يستفتح اليوم بكرسى معسل . فتح اللّه لا تذهب ظنونه ولا يصدق - لو سمع - أن تكون هذه معتقدات وليفته . هذه بالذات يعدها مزية تقربه من الناس الذين يكره تعاليهم ، عائلة السوالم ، الذين لا يشربون الحشيش إلا فى الليل .

حوشنى ياسى فتح الليل . استغاثة من السطح لواحد من أخوات هانم . حاولت أن تمنع فتح اللّه من الصعود إلى السطح . صعد . إخوان وليفته الذكور الثلاثة رءوسهم مكشوفة فى الشمس ، تبقعها فتلات من الشعر . الجلدة حمراء ، بيضاء مشقوقة ، ينز منها الدم . ليس دمًا أحمر ساخنًا كالذى انبثق من رأس السيد أبو دراع . دم أصفر ، أبيض ، دم دهنى . امرأة غريبة . ليست من البلد تجلس ناهضة على قزحها ، تشد بقوة قطعة رقيقة من جوال سماد كيماوى .. طبقة القطران الأسود الرقيقة التى يشمع بها الجوال من الداخل ملتصقة بجلدة الرأس المتقيحة الجرداء . المرأة تشد قطعة الخيش بقوة . قطعة الخيش الرقيقة تتمزق مرة بين يدى المرأة . مرة يطلق الولد صرخة استغاثة . شريحة من الجلد المعيوه تتمزق ملتصقة بالخيش . خالتى نرجس ممسكة بكل قوتها . هانم ركبها عفريت . شتمت أمها .

لعنت الأولاد وأباهم . لعنت اليوم الأسود الذى ولدت فيه فى هذا البيت . سحبت فتح اللّه من يده . متى سيتوب اللّه عليها من هذه الدار النكد . رصت كرسى معسل . مدت غابة الجوزة إلى فتح اللّه . لقمها وشد نَفَسًا عميقًا كما لم يفعل من قبل . يقاوم رغبة فى التقيؤ . أحس الحرج مرتسمًا على وجه هانم . حاول أن يخفف عنها . أحس بها تريد أن تبكى لو أن فتح اللّه أمسكها من يدها لصحبته إلى داخل القاعة الجوانية . تعرف أن البلد كلها تصف أخواتها بالقرع . لحظة تعيسة من حياتها حقا أن تحضر المداوية لتعالج أخواتها وفتح اللّه بالدار . لم تصل إلى أن العلم بواقعة ما يختلف عن معايشتها ، بإحساسها أن علم فتح اللّه بقراع أخواتها شىء ورؤيته للقراع معروضًا تحت أشعة الشمس شىء آخر ، لحظة ضعف ساحقة تعيشها هانم . تريد أن تفعل أى شىء تشعل فى البيت حريقًا . تطرد فتح اللّه . أحست نحوه برغبة فى ألا تراه .. منذ عرفته وهى تسير على حبل .. تخفى عنه حياة أبيها وأمها وأخواتها . من أجل ماذا . هو لا يستحق . ولد مفعوص ، ولا خير فيه ، ويسرق من أبيه . من لا خير فيه لأهله لا خير فيه للناس . إنها تكرهه . تكرهه . ملعون هذا القاتل المجرم ، قاتل كأبيه الوهيدى الملعون قتل صاحبه من أجل سمكة . اسمع يا فتح اللّه .. السبخاوى يقوم بإخفاء المواشى المسروقة . عليك أن تعرف . صاحب عملية الإفضاء أو التفضفض رغبة بارزة أن تتعرى هانم أمام فتح اللّه . فتح اللّه

تشغله شفقة عميقة نحو هانم . لم يلتفت . توازت داخل هانم عملية الإفضاء مع رغبة فى أن تخنق فتح اللّه ، تخنقه بيدها ، بيديها تضغط رقبته ، وتلتصق به ، تحضنه . أمسكت بيد فتح اللّه . ضغطت دون أن تحس .! كانت تبحث عن كلمات ممطوطة لصياغة الخبر . ما زالت حالة التقيؤ تشغله . رغم ذلك شدته جدية قاسية تشكل ملامح هانم وتهزها . انفراج واضح بين شفتيها . وفوجئ تمامًا . هانم تدس غابة الجوزة وتطبق عليها فمها . نفثت من منخاريها سهمين حاسمين من الدخان الكثيف . تموج دخان متسكعًا بين فمها والهواء الخارجى . عندما وصلت هانم إلى أن البهائم المسروقة يخفيها أبوها فى دوار جابر أفندى أبو سالم ، حضرة العمدة ، كانت قد انتهت من قذف الخبر ، كانت قد تخلصت من توتر عضلى شد داخلها ، لم تدر هى الأخرى سببه ، بعده أحست بالضوء يغمر المصطبة ، بارتياح ، حب إلهى لفتح اللّه ، للجوزة ، لأبيها ، لضعفه ، لأمها ، لإخوتها القرع ، ليس ذنبهم أن ربنا خلقهم قرعًا ، حنين نحو دارهم بطبقة الهباب فى سقفها ، القاعات ، المصطبة ، الباب الخشبى ، السلم ، جذع النخلة المنجور ، البلاص القاعد بجوار المصطبة ، الفرن ، الكانون . التفتت إلى فتح اللّه . ولد طيب ، برىء ، لا يجرؤ أن يذبح فرخة ، هجر أباه ، دارهم ، يتحدث عن أمه كطفل ، لم يرها ، ماتت قبلا ، يحب خالته ، ماذا تستطيع أن تقدم له ، كيف تفديه ، عليه أن يعود إلى أبيه ، إلى دارهم ، لا يجب أن يحرم

من خير أبيه ، لا يجب أن تكون هى سبباً فى شقائه ، عليها أن تمنعه - بعد ذلك - عن سرقة الحبوب من سطح دارهم ، عليها - بالذات - أن تفصل بينه وبين رجل الليل الأهبل .. يريد أن يكون منهم ، إنهم مساكين وحياتهم ليل ، ليس لهم بيوت يملؤها الخير كبيت فتح اللّه . سألها فتح اللّه لِمَ هى سارحة ؟ أفاقت . فتح اللّه .. بحبك .. صدقنى .. قلبى أبيض .. ما يشيلشى من حد . حتى عيلة جابر افندى .. يا سلام يا فتح اللّه .. يا سلام ، قاومت رغبة مخدرة للنعاس ألمت بجسدها كله . أحس فتح اللّه كرباً يملؤه . لها أن تحب كل الناس كل شىء إلا عيلة جابر أفندى ، إلا عيلة السوالم . هم أن يسألها بدت له عليمة بأسرار الليل .. هانم .. من قتل فهيم ابن زينة ، كيف لا تذكرينه ؟ فهيم الذى ألقى السم لمواشى العمدة وهى فى الدوار .

(٤)

بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة أمام دكان الشيخ سعيد قعدة أولاد الحارة ، يتخاطفون سيجارة ، يرصون كرسى معسل ، يتراهنون على كسر أعواد القصب بسيف كف اليد ، يتراهنون على أكل قطع الصابون وشُرب الجاز وسبب خفى آخر ، التعليق على نسوان الحارة عندما تمر عليهم فى الظلام . بعد الطبخ والأكل وتنويم العيال تتنادى جارات الحارة وكل جماعة قافلة صغيرة تأخذ طريقها مارة بمصطبة دكان الشيخ سعيد إلى التلول تفك تكة السروال والجلسات

متقاربة – الأسرار – هى الأخرى – حمل ثقيل احتجزنها يومًا بكامله لتخفف حالتهن ، تنتهى الجماعات بعد أن يتخففن . عند العودة ليس شرطًا أن تكون كل جماعة هى بذاتها التى خرجت ، يعاد تشكيل الجماعات ، التلول حول البلد ملك للحريم فى الليل .

فتح الليل يداور ابن خالته . يريد أن يطمئن على عودة هانم من التل . كل عريس يرقب عروسه من رحلتها إلى تلول السباخ . لم تعد هانم . إن حالة فتح اللّه تشده ، ولد عفريت هو الذى كشف فتح اللّه . قم يافتح اللّه شوف خالتك . الغائب حجته معه . تعملها المرأة ، لو أن لها الغرض ، وهى نائمة إلى جانب زوجها .

– ازيك يا فتح اللّه . لمبة الجاز معلقة على مسمار بالحائط . على المصطبة تمدد الأولاد . الخالة قبلته من خده اليمين مرة ومن الخد الآخر مرة . احتضنته . ضمته إلى صدرها . امرأة فارعة ، عجوز ماسكة حيلها .

ازيك يا حبة عينى .. عاتبته . ألا تراه الخالة إلا بمرسال . لفت من بعيد . سألته عما اشتغله فى الغيط . فتح اللّه لم يشتغل . تابعت لفها . استفسرت ، الصحة متوعكة يا خالة . وهى تعلم أنه يتهرب . تنتزع حقيقة . سلامتك يا فتح اللّه ، ألف سلامة ، خالتك تتحمل عنك . نسيت أنها كانت تداوره لتصل إلى خلافه مع أهله . تستقصى نوع تعبه .

ألف بعد الشر عنك . تتعب يا فتح اللّه وأمك لا تعرف . ضمته إلى صدرها . طبطبت على كتفه . من يدرى ربما لم يتناول عشاءه . قدمت من الموجود . صحن الجبنة القديمة مدهوسة فى المِش ، اللِّفت وأعواد السريس . فتح اللّه تغير . الخالة رأته قد امتصه الهزال ، أبداً يا خالة واللّه أنا حصان . آه يا فتح اللّه ، يا حبة عين امك ، هل تنكر ، عيان وتنكر ، لست أقل من أمك . فتح اللّه لم يملك نفسه . لو أن الناس كخالته . بكى . قبلته على خديه فى طرقعة . ما عاش من أبكى فتح اللّه . لا تعرف كم أعزك يا فتح اللّه . سمع اسم أمه . نطقته خالته وكأنها تبسمل ، كأنها تصلى على النبى . لا يجب أن يبكى فتح اللّه وخالته على ظهر الأرض .

فتح اللّه لا يود أن يعود إلى دارهم ، لا يعرف السبب بعد يوم حكاية السيد أبو دراع .. كان ولد شهم يا خالة .. فتح اللّه لو كان يدرى ما سيحدث لمنع ، هو نفسه ، أباه عن ضم قطعة أرض السيد أبو دراع إلى أرضهم .

كان فتح اللّه يقيم جسراً . انتبه على زعقة حامد . أبو دراع كان مقبلا جريا . تململ فتح اللّه . تمنى لو أنه اعترف لخالته أنه هو الذى ضرب . ليلتها حاول أن ينام . تلف فى رأسه المشاهد . صورة أبو دراع مرة جالساً مع أبيه يرد على عم الوهيدى بلا خوف ، فى شهامة . على الحرام ياعم الوهيدى أنا والبندقية فى يدى ما تطرف عينى لجابر

أبو سالم ، ولا لعيلة السوالم كلها ، عيلة فى عينى قش ، لا الأرض ولا الهيصة تهز طرف عينى .

فتح اللّه لم يستطع أن يوفق بين أبو دراع الشهم وبين أبو دراع ملقى على الأرض ، على وجهه فزع ، ذلة ، انكسار ، فى لحظة لم يكن هو السيد أبو دراع ، كيف . ترتسم قطعة الأرض الصغيرة . هل كان عم الوهيدى يعلم . الأكيد أن لا شىء كان يمنعه من ضم الساحل . وفهيم ابن زينة . ليلتها طرق فتح اللّه حجرة عبد الشاطر ، كان نائمًا استيقظ ، أنت يا فتح اللّه مدلع ، ولد خسران . لو أن فتح اللّه تعب من الشغل فى الغيط ، لو أتاه النوم وهو عائد على ظهر الحمار ! عبد الشاطر يخلق فى الغيط الشغل من تحت الأرض . نصيحة عبد الشاطر أن يعود فتح اللّه لينام .

كان الشارع ساكتًا ، مظلمًا . لم تكن القرية موحشة هكذا أبدًا . الخالة تقاطع . نهايته يا خالتى .

لم يكن فى الحارة دار واحدة صاحية غير دار السبخاوى . شربت كرسى معسل ، اثنين . لم يكن لفتح اللّه رغبة أن يعود إلى دارهم . غلبه النعاس . أسند رأسه إلى الحائط . استيقظ . كان الليل ساكتًا . كان رجال الجوزة انصرفوا .

السبخاوى ممدد . إلى جواره نام فتح اللّه . شد الكيس . توقف فتح اللّه . أحس بخجل . فى الصباح الضاحى استيقظ . لم يكن بالدار

سوى هانم . قدمت له كوبًا من الشاى . سألته . حكى لها . استمعت إليه . حدثته . انت ياسى فتح اللّه وحياة سيدنا النبى رجل بنى آدم . الأعمار بيد اللّه . أبو دراع كان سيموت سواء ضربه حامد أو لم يضربه . الميتة مكتوبة على جبينه . كلنا سنموت . خفف عن نفسك ياسى فتح اللّه .

فتح اللّه سمع التأكيد قاطعًا أنه لم يضرب أبو دراع . فتح اللّه قلبه خفيف . حامد هو الذى ضرب . فتح اللّه طرح ما حدث على هانم . البراءة منها سمعها بأذنه . يتمنى فتح اللّه أن يكون حكم هانم حقيقة .

الخالة لم تستمع إلى تفاصيل الجلسات الطويلة . الخالة لم تر صلة بين موت السيد أبو دراع والطوفة التى ألمت بابن أختها . مصممة على أن تعيده إلى دار أبيه .

السبخاوى يا فتح اللّه يا ابنى رجل من غير مؤاخذة ، اسم اللّه على قيمة ابن اختى ، مش راجل ، لم يكن خفيراً فى خدمة الحكومة ، سحاب نسوان لجابر افندى ، جابر افندى رجل ذيله نجس .

فتح اللّه يجابه أمه أو خالته . المهم هى ، هانم نفسها .

الخالة لا يعوزها الرد ، اللهم احفظ ولايانا ، يابنى لسان الناس ، لسان الناس لا يبرئ نرجس زوجة السبخاوى ، هانم تربت فى ماعون شين ، كل واحد حسب ماعونه ، والبنت يا فتح اللّه يا ابنى لأمها ، فتح اللّه لم يقتنع . هو سمع ، لكن يا خالة هل هذا يعنى أن هانم

معيوبة . يا فتح اللّـه . من قالوا عنها قحبة هى قحبة . الخالة لا تعرف ماذا يعجب ابنها فى هؤلاء الناس . عيلة معيوبة من طأطأ لسلامو عليكو . الخالة تستعرض ، السبخاوى ، نرجس ، حتى يابنى عيالهم قرع .

فتح اللّـه يقتنع تمامًا حتى نخاع عظمه بكلمات خالته . يضيف أن هذا شىء وهانم شىء ، يا خالة سيبى حكاية الزواج لن أتزوج . ترجح الخالة أن ابنها يناور . حاولت أن تصل إلى داخله . أحست أنه يكاد يفلت منها متخليًا عن صدقه فى حديثه معها . وبالتحديد مخفيًا نياته عنها . يحكمها عاملان : حبها الشديد لابن أختها ، اتفاقها مع عم الوهيدى على أن تعيد الولد الشارد . عم الوهيدى هدد بضرب الولد بالنار . هدد بقتله . الخالة هددت أن الولد قد يفعلها ويسوح فى بلاد اللّـه . الوهيدى وافق على زواج ابنه من هانم على أن يقطع علاقته بأهل البنت . وصية عم وهيدى للخالة ألا تقدم للولد الحل الذى وصلا إليه إلا بعد أن تكون قد غلبت معه . إذا أحست الخالة أنه قد آن لحظة إلقاء الورقة الأخيرة . صارحت فتح اللّـه بموافقة أبيه شريطة أن يقطع علاقته بالسبخاوى وعائلته .

(٥)

بتوجس وخوف – ممزوجين معًا – بالرعب أمسكت الست جواهر بالمقبض النحاسى الأصفر ، أدارته ، واربت ضلفة الباب ، انسلت إلى الداخل . فى وسط الحجرة تنتصب أعمدة السرير ، نيكل بيضاء

مربعة ، تنزل منها الناموسية ، كالمحمل ، الضوء الخفيف المتسلل من ستائر النوافذ يعكسه طلاء الجدران الزيتى ، طربوش جابر أفندى ، الجبَّة ، الكاكولة ، الجزمة ام أستك الأجلسيه ، وفردتا الجورب فوق الرخام على الكومودينو تتدلى منهما حمالة أستك حرير . رفعت الناموسية بحذر بالغ . صح النوم يا حضرة العمدة . لا تنتظر ردا . لم يعترض على أن تزور أخواتها . يسكنون فى نفس التربيعة التى أقامت عليها عائلة السوالم منازلها وسراياتها غرب البلد . على الزوجة أن تكلف واحدة من الخادمات إعداد دورة المياه . إبريق ماء ساخن فى المرحاض ، آخر لاغتسال حضرة العمدة .

فى منزل المرحوم أبيها ، بين إخوتها انفجرت الست جواهر باكية . أقات من اللحم الأبيض اهتزت . لن تتحمل أكثر مما تحملت . رجل زناوى ، عياره مفلوت ، أقسمت الست جواهر بابنها رشاد ، كانت تفضل الزواج من بائع فجل ، الإخوة يعلمون ألا حيلة لهم فى الأمر ، هم أنفسهم يفعلون ما يفعله جابر أفندى ، لا مفر لهم من مهاودة أختهم الكبيرة ، عليهم أن يستعدوا الليلة لضبط جابر أفندى مع واحدة من نسوان الفلاحين أولاد الكلب فى الحجرة الملحقة بإسطبل الخيل . لم يبق إلا أن ينام مفلوت العيار مع قبحاته فى حجرة النوم . استعد الإخوة ، أبناء عمومة وخؤولة جابر أفندى .

السلام عليكم ورحمة اللّه ، السلام عليكم ورحمة اللّه .

تصافح المصلون . انتهت صلاة العشاء . عيال الحارة وأولادها على مصطبة الشيخ سعيد . نسوان الحارة فى طريقهن إلى التلول . بعد الذى منه ، يدققن فى اختيار الطوبة للمسح ، الخشية من أن تكون الطوبة إفراز آدمى جاف ، الأولاد على المصطبة لا يكفون عن التعليق على مواكب النسوة . حج مبرور . كل سنة وأنتم طيبين . لا يمنع أن تكون أم الواد بين الجماعة . يصفعه ولد آخر على قفاه . يا ابن الكلب وسر المصحف الشريف أمك كانت فى الوسط .

الدسيسة طرقت منزل المرحوم . واحد من خفراء حضرة العمدة . حماس شديد ألم بالست جواهر مع الإخوة تقدمهم كلوب ، دون أن يشعروا كانت وراءهم زفة ، الإخوة أولادهم ، باب الحجرة الملحقة بإسطبل الخيول العربية الأصيلة ، الكتوف ضغطت ، انكسر الباب ، اندفع الرجال تتقدمهم الست جواهر ، باقى المولد وراءهم ، فى ركن الحجرة كانت تقف مرعوبة ، مرتعشة ، تشلها هبات برد داخل مسام جلدها و دست جلبابها من رأسها ، شدته بصعوبة ، نسيت السروال - كالعلم المهزوم - معلقًا على مسمار فى الحائط .

خيبة الأمل حطت على الست جواهر . أحس إخوتها بالارتياح . مواجهة العمدة لم تكن شيئًا هينًا . لحظة مرت أو لم تمر . الإخوة وراءهم قعدات الحشيش . الست جواهر لحظتها ممتدة لم تنته من قبل

أن تلد رشاد و إخوته . من بعد ليلة زفافها وهى ترقب تسلل حضرة العمدة مع واحدة من الخادمات . فى محاولة للإفلات من اللحظة تقدمت الست جواهر قوية بدينة فيها عافية تكفى لشد نورج أو محراث تتعثر فيه بقرتان من بقر الفلاحين الأعجف ، رفعت يدها إلى السماء ورن الكف على وجه هانم . هانم تلف بها أرجوحة لفات سريعة دائرية متلاحقة حتى لكأن الأرجوحة ثابتة . هانم فاجرة كأمها نرجس ، فاسدة كأبيها السبخاوى السحاب . كان الكف إشارة البدء . على الإخوة أن يجاملوا أختهم ، بالأيدى ، بالأرجل ، بالعصى . يسقط الضرب على هانم ، متكورة ، منكمشة ، مستسلمة ، الست جواهر لا تدرى كيف تفرغ غيظها ، خيبة أملها فى أنها لم تضبط حضرة العمدة . الضرب لا يكفى . همت أن تهجم على البنت وتنهش فى بطنها بأسنانها وبأظافرها فى الأماكن الحساسة . احتارت حتى الموت ماذا تفعل . كل تصرف مباح لها . حرة تفعل بالفريسة ما تريد . لحظة نادرة فى حياتها ، أنار عقلها على غير توقع منها . التفتت إلى الأولاد والعيال . صرخت فى وحشية : ولاد ، ولاد ، جرسوها ، بنت السحاب ، قحبة كأمها . وفى هدوء ، كالهواء النقى ، كأن على رأسه طاقية الإخفاء انسل رشاد أفندى ابن جابر أفندى لا يصدق أن هذه هى أمه . فى قرارة نفسه أنها على حق وأن هانم القحبة بنت القحبة تستحق أكثر مما حصل لها .

(٦)

بنفسه رفض أن يقابل هانم حين طلبت لقاءه بعد العشاء ، على سطحهم . فى المرة الثالثة ، حمل المرسال .. هانم لن تحدثك ، ستعيد إليك أشياءك ، المناديل ، زجاجات العطر ، الفستان ، حتى الفلوس ستسددها ، فتح اللّه نفسه يحس أو لا يحس أنه منقسم . دماغه يملؤه طنين ، طنين تصنعه كل أحاديث المصاطب ، تملأ الحارات ، أحاديث جسور الترع ، مدارات السواقى ، قعدات الحشيش ، قعدات المعسل والنسوان ، النسوان الجالسات على قزحهن فى الظلام على تلول داير الناحية ، ويتحسس السباخ بحذر بحثًا عن طوبة ناشفة . هانم ضبطوها مع رشاد أفندى ، مع جابر أفندى ، مع فتح اللّه ، مع واحد من زوار أبيها فى الليل ، مع .. مع .. مع ، كأمها .. كأبيها .. هل .. هل .. هل .. البلهارسيا ، نقط الدم الأحمر ملء كف بعد كل بولة ، توحد كل أبناء البلد ، فضيحة هانم ملء كف دم وحدها ، ووحدتهم هى الأخرى . لا يستطيع فتح اللّه أن يضع إصبعه عليها ليقطعها ويستريح ، جزء منه وليس منه ، جزء من صدره ، أصم ، أبكم ، أعمى ، لا تصل إليه أحاديث المصاطب والجسور والتلول والقعدات . جزء داخله يعذبه ، يشد عينيه طوال الليل ، لا تغمضان ، يصاحب خطواته ، يخنق صدره ، جزء فيه هذا الـ « هانم » وحدها ، زلطة تشعوط النار كل ما حولها ، هى صامدة ، زلطة يسكنها جنِّى يتحكم فى قسمات وجهه ، فى مزاجه ، لا يتلقى أوامره منه .

قبل أن يستجيب لإلحاح هانم ، ليقابلها فى حجرة صديقة لها مر على خالته ، قبلته ، طبطبت عليه ، ازيك يا ضنايا ، تعالى ، تعالى يا فتح اللّـه ، اقعد إلى جوار خالتك ، شبه المرحومة أمك تمامًا ، سبحان الخالق ، يا حبة عينى ، الأم تشبه من يا خالة ، أكانت شبهك ، انزعجت الخالة . خالتك يا حبة عينى إيش جابها لامك ، فرق البحر من الترعة . يا خالتى البطن واحدة ، انت وامى من بطن واحدة . آه يا حبة عينى ، البطن تجيب الزين والشين ، وابو فصادة والاقرع وراكب الخيل وخايب زمانه . قهقه فتح اللّـه . أفلت من قبضة الجنِّى اللعين . الجنِّى الذى يلبد داخله ولا يتلقى أوامره منه . جنى حضور هانم . آه يا خالة لو يسكن فتح اللّـه فى حماك حتى يوم القيامة . لحظات الصفو الخالص معك وحدك . صفوك يا خالة لا يأخذ بأنفاسى ، لا يخنقنى ، معها هى الأخرى تصفو النفس ، صفو منقبض خائف دائمًا . عرض على الخالة ، هانم دعته للقائها ، تريثت الخالة ، ابن أختها ، حبة عينيها لم ير وليفته منذ الليلة الملعونة ، فى ليلة واحدة ، أمسك بفتاته زوجة له .. أفلتت منه إلى يوم القيامة ، هو لا يقول إلى الأبد ، بعدت عنه فى ساعتها . الغد يخيفه ، فى يومه الجارى هى ليست له . الغد فى يد ربنا الذى فى السماء . حين يأتى الغد ويصير يومًا جاريًا هى ليست له ، لا يريد أو لا يحب أو لا يجرؤ على أن يصدر حكمه على الغد . يكفى أنها ليست له فى يومه الآنى . إنها – والعلم عند اللّـه – قد تكون له فى غده : إذ يتدحرج غده ليصير يومه . عندئذ سيصدر حكمه قاطعًا .

هانم ليست له . قابلها يا ابنى ، شوفها ، اسمع منها ، العيش والملح له حق ، اللهم استر ولايانا ، وفوت على يا فتح اللّه .

اللمبة الجاز معلقة على المسمار المدقوق فى حائط الطين ، على الحصيرة جلست هانم وصديقتها . كان سلامًا انتفض له الجنى داخل فتح اللّه . إنها هى هانم . الصوت مرتعش محشرج مبحوح خافت . ازيك يا هانم . منطوية متكورة . متقهقرة . حزينة ازيك ياسى فتح اللّه .. الصمت الذى لا يعرف الخفوت أو الانطواء حط .. شريط اللمبة يطقطق . استأذنت الصديقة لتعد كوب الشاى ، بقى الصمت . سطع نور اللمبة الباهت الخجول ، بَقَّه فى حجم حبة عدس بقشرتها تجرى كالمذعورة على الحائط ، شجيرات العاقول الشوكية مسمرة على الجدران لقتل البق النهم . كان نعسانًا على مصطبة السبخاوى . تقدمت إليه .. سى فتح اللّه . وارب عينيه ، كان عم السبخاوى قد استيقظ وتركه نائمًا . سى فتح اللّه .. صح النوم ، دلقت على يديه من إبريق الفخار الأسمر ، غسل وجهه بصابونة معطرة قدمتها إليه ، على كفها كوب الشاى ، تأمل جبهتها ، نور اللمبة الباهت الخجول يسطع على جبهة هانم . ازيك يا هانم . اكتشف أن يده ممسكة بيدها . فزع . كأن بين أصابعه ثعبانًا . سحب يده على عجل ، سحبها وهو لا يدرى حقيقة مشاعره . من دماغه كان ينطلق حديثه قاسيًا ينهى كل شيء . كل شيء يجب أن ينتهى . السيرة لبانة بين أفواه القرية . قسمة ونصيب .. من المنطقة المجهولة هانم هى هى ، هانم إلى جواره بنفسها بلا زيادة

ولا نقصان . عرضت هانم بؤجة بها أشياء فتح اللّـه ، ردها . هو ليس خسيسًا . هانم آمنت ، انت صحيح لست خسيسًا وانت ابن ناس . ماذا يصنع فتح اللّه فى الكلمات . هو يقصد أنه ليس خسيسًا ليسترد أشياء خرجت من ذمته ، أما أن تخرج الكلمة من فمه لتكون حبل اتهام تسىء تخنق فهذا ما لم يرده . كل شىء يتمرد على إرادة فتح اللّه حتى كلماته . انفجرت هانم باكية ، هو ابن ناس أما .. أحس بحزن حقيقى . حزن من المنطقة المجهولة ومن دماغه معًا . مثلما كانت خالته تقبله على جبهته قبلها على جبهتها ، بشكل خفى ، تقبيلها على الجبهة عمل مختلف تمامًا عما فعله رشاد . لهذا فتح اللّه يبيح لنفسه إتيانه . هو يتفرد بالجبهة . هانم .. عليك أن تدعى كل شىء للغد . فى الغد يجد فتح اللّه راحته . وعدها أن يزورهم فى البيت . كانت قد نقلت إليه خبر مرض أمها .

(٧)

يبدأ بصداع فى الرأس . همود فى الركبتين . تهدل فى الجسد كله . إسهال . قىء . بعد ثلاثة أيام ماتت الأم . ماتت نرجس . لم يشترك فتح اللّه فى السير فى الجنازة .

فى نفس اليوم ماتت امرأتان . مات ثلاثة رجال . فى اليوم الثالث استقبلت أفواه المقابر خمسة رجال . دفنوا - أيضًا - على الساكت .

امرأتان . عدد من الأطفال . ببطء تدريجى ثابت . تسلل الخوف . ملأ البلد كلها . خلت المصاطب ، قعدات المعسل ، حتى المساجد . تجمعات مختلسة مرعوبة تتهامس ، تتناقل آخر أنباء المرض ، أى الموت . من أصيب بصداع فيه الشك والأمل . الإسهال يقطع الشك باليقين . البحث عن الليمون شغل الناس . إشاعة أن البلح هو السبب . المرض الجديد مُعْدٍ يا أولاد . ثلاثة أيام ثم الموت . لا مريض واحد شفى ، البلد تدفن كل يوم . كل يوم موت ودفن وجنازات صامتة . الدفن لا يتوقف فى كل بيت مريض أو ميت أو مرعوب . قش الرز ملأ الشوارع والمصاطب . على قش الأرز يجلس المشيعون . المدرسة الإلزامية ، ومكتب المحافظة على القرآن الكريم أغلقا . سوق الاثنين ما عاد يقام . كل واحد انطوى على خوف عميق . خوف يخاف أن يهمس به لنفسه . لا أحد أبداً هاجمه المرض وشفى . البلد انقسمت قسمة غريبة كما لم يحدث أبداً أو كما هو حادث دائمًا . عيلة السوالم أقامت معسكراً وقائيا حول سراياتهم ومنازلهم احتمت داخل معسكرها . فكروا أن يقيموا سوراً بين بيوتهم وباقى بيوت الفلاحين ، أى غريب من العائلة محظور عليه الاقتراب من بيوتهم . أهالى البلد عليهم وحدهم ينصب غضب اللّه . العائلة الغريبة الوافدة على البلد بيوتها منعزلة . الشغالة الذين يخدمونهم فى الغيط والبيت حجزوهم داخل المعسكر . منعوهم من النزول إلى ذويهم . المسجد المشترك قاطعوه . جابر أفندى احتجز السبخاوى وكلبه سبع الليل . مقابر البلد مفتوحة للأهالى وحدهم . المقابر ضاقت بالموتى من

أهالى البلد . عبد الشاطر خيل إليه أن برأسه صداعًا . حمل فأسه إلى الغيط . هو يعالج الأمراض بالشغل ، أربعون عامًا ما اعترف بطبيب أو مستشفى . الأعمار بيد اللّه .. هو مشغول دائمًا فكيف يمرض . المرض رفاهية العاطلين أهل المصاطب . هو دائمًا وراءه شغل فى الغيط . الأرض يا أولاد دائمًا تحتاج إلى اليد اللى تلعب فيها . ترفع الحجر من جانب عود القطن ، تحيطه بالتراب الناعم . الزرعة فى الغيط كالطبخة لو تركت على الكانون شاطت . عبد الشاطر عاد بفأسه . لم يصدق أنه أصيب بإسهال . علامة لا تخطئ . عم الوهيدى الحريص الواعى الرزين جن . كل شىء يارب إلا عبد الشاطر . لم ينجب سواه . هو كل شىء . من أجله كل شىء . أبيع البهائم بهيمة بهيمة ، الأرض التى جمعتها شبرًا شبرًا . أبيعها ، أعود كما بدأت لا يهمنى ، يبقى عبد الشاطر ، ستخلق أرضًا جديدة من تحت الأرض ، سنملأ الدنيا زرعًا وقلعًا وخيرًا . عبد الشاطر ، عبد الشاطر ، حمل الرجال عبد الشاطر نزلوا به إلى القبر العميق . انهال التراب . عائلة السوالم بحالها كأن المرض لم يعرف بيوتهم . لا رجل لا امرأة لا طفل . الخالة هى التى أفضت إلى فتح اللّه ، يا ابنى البنت هانم سمعت يا ولداه انها تعبانة . الحيرة عاودت فتح اللّه . أمها ماتت ، العمدة حجز أخواتها . فتح اللّه حملته خطواته إلى دار عم السبخاوى . تخطى العتبة فى خوف . دق صدره خبطات متلاحقة . دوار خفيف طاف بدماغه ولم يلتفت إليه ، قابل عينيه صمت مقبض . كل شىء يراه لأول مرة .

باب الدار . شرائح غليظة من أفرع الشجر . تراب قديم يفترش كل ما أمامه . الهباب طبقة سميكة هشة متراكمة على السقف . الدار ، برج حمام مهجور ، طافت بذهنه كلمات موال . حرمت يا دار اخش الزقاق علشانك . هو لم يدخل هذه الدار منذ زمن خيل إليه أنه عمر بطوله أو ليلة . البلاص الذى كان دومًا نظيفًا ومروقًا بنقى المشمش ، مبخرًا باللبان المحروق ، الجوزة . هنا جالس رجال الليل أخذ منهم ، أعطاهم ، حدثهم ، حادثوه ، أتعبهم أبو دراع ، طوفة حملته إلى الليل ، كان يكره عيلة السوالم ، كلنا نكرههم يا فتح اللّه ، لكن جابر أفندى هو المتوى ، آخر محايلة معه ، أبو دراع أقسم بالطلاق ، طول م ابن الكلب متحكم فينا ما يعيش معانا . كان يبكى كالحرمة . يا جماعة هو ابن الكلب ورانا ورانا فى الغيط ورانا ، فى الليل ورانا ، أنا هـ اعدى الشرقية ، لكن من قتل فهيم ابن زينة لحساب العمدة ، غمغم الرجال . حتى هانم لفت ودارت . كانت أحيانًا تصمت . هل كانت تكذب وهى تشتم عيلة السوالم . طالت وقفته . نادى اسمها . هانم .. هانم .. ألقى نظرة على القاعة الجوانية . دفع الباب . وقف فى البحراية . زكمته رائحة الرطوبة والعتمة تملآن أركان الحجرة . زبل أرانب فى جحر داخل المصطبة . فوق حصيرة باهتة هانم متكورة . وجهها للحائط . أنين خافت لا يصل إلى أبعد من آذان الجدار . وصل إليها صوت فتح اللّه . استدارت . رفعت عينيها إليه . فتح اللّه ازيك . كتر خيرك يا فتح اللّه ، العيش والملح له حق . كانا كالإخوة . كيف تتحدث . بكت . فتح اللّه عليه أن

يرجع ، فالمرض الملعون معد . ليبعد فتح اللّه يستمتع بشبابه .
الانقسام الذى عذب فتح اللّه ارتفع كله ، خالصًا لهانم ، لكنه يحس أن
دماغه هو الذى يدفعه . خنقة الصدر ، شلل الجسم كله ، افتقدهما
إذ يلقاها هذه المرة . تقدم إليها . حزين . حزين من أجل حالة
هانم . جلس إلى جوارها دق صدره . أمسك بيدها . ازيك يا هانم .
إحساس قوى بالواجب يدفعه . من رأسه تسقط تصرفاته . هذه هى
هانم يا فتح اللّه . تمن لها الشفاء . لم يطرح على فكره ما بعد الشفاء .
شمر كُم جلبابه بفأس قديمة جرد القىء . رش ترابًا ناشفًا . فتح دولابًا
داخل الحائط . سحب جلبابًا نظيفًا . أجلسها . أسند ظهرها إلى
صدره . بكوز ماء ، بقطعة قماش بللها ، مسح وجهها ، يديها ، قدميها ،
خلع عنها الجلباب الذى تلبسه ، ألبسها الجلباب المغسول ، أعد لها كوب
شاى ، أعطاها حبة أسبرين ، عصر لها شقة ليمون فى كوز ماء .
أرادت أن تقضى حاجتها ، أسندها إلى كتفه ، بدد خجلها ، عيب
يا هانم ، ألسنا أخوات ؟ داخل الدار فى مربط قديم لمعزة بيعت قضت
حاجتها . كنس لها المصطبة التى تشغل صحن الدار ، مصطبة رجال
الليل ، قعدات المعسل والحشيش . فرش الحصير ، أجلسها على
المصطبة ، واربت هانم عينيها . الضوء يملأ الدار . يمامة تهدل على
السطح . صحوة تتمشى فى أوصال هانم . حلم . أكدت أنها لن تموت .
الموت لا يقدر أن يأخذها من جوار فتح اللّه . فتح اللّه يعرف أن هانم
هى ما يربطه بالبلد ، بلد السوالم . هل حقا كانت هانم تكرههم ؟ هل

تعود الحيرة داخل فتح اللّه ؟ هل تغير دماغه منها ؟ هل لحظة صحوها أرجعته إلى حيرته و إلى الانقسام داخله ؟ أحس فجأة بضيق لم يدر سببه . أدارت هانم عينيها . ألمت بكل ما فعله فتح اللّه . نظرت إلى جلبابها ، يديها ، أعملت ذاكرتها ، أحست بخجل حقيقى حين تذكرت خلعها جلبابها أمام فتح اللّه وقضاء حاجتها سحبت عينيها بعيداً عن فتح اللّه مداراة لخجلها ، عادت تنظر إليه ، أمسكت بوهن بكفه ، طلبت أن يجلسها . فى عينيها الدار نظيفة كأنها فى ليلة عرس . حاولت أن تقف . لم تستطع . جلست . لفت بهما الدار بشدة . صوبت عينيها نحوه . لم تكن تعرف أنه يحبها كل هذا الحب . وفى المسافة الزمنية التى أحست فيها هانم بدبيب النهاية ، أحست بعتمة ضبابية أن اكتشافها لمع متأخراً . كانت تتفتح داخلها دلائل صدق حب فتح اللّه لها مع دلائل الإحساس الجسدى بالنهاية . لم تستمتع لحظة واحدة خالصة باكتشافها أنه يحبها كل هذا الحب . يأس ألم بعدد خلايا جسدها ، خلية خلية . يأس كأنه العقوبة . عقوبة تكتشفها هى وتخضع مرغمة لها . أمل تعجز عن إفصاحه ، أن تحيا لحظة واحدة مع اكتشافها بعيداً عن يقين الموت . لا تملك القدرة من الحياة أن تسأل نفسها سبب عماها عن عاطفة فتح اللّه . لم يجد جديد . كانت تعرف أنه حتماً كان سيفعل ما فعل . كانت تعرف كلماته قبل أن ينطقها . تصرفاته قبل أن يأتيها . لكنها أبداً لم تكتشف قبلا ، ولا تكتشف إلا فى لحظة آفلة . إحساس فوق اليأس ، فوق الألم ، يفوق الحياة نفسها ،

يعلو على الموت . الممددة على المصطبة . ظهرها إلى الحائط . إلى جوارها الرجل الذى أحبها تنظر إليه . ليس بعينيها ، فإن عينيها قد كفتا عن وظيفة الإبصار ، تنظر إليه بخلايا جسدها كله مخترقة الملابس والسر والغموض . إحساسها لم يعد يرتسم فى شكل معنى . لا تعبر عنه الكلمات . المعنى والكلمات ينتسبان إلى شاطئ تقلع عنه . إحساسها رؤى تنفغر داخلها . هى ذاتها غدت رؤية . إحساسها قطيفة حمراء غامقة ، تزداد غمقة حتى لتصل إلى لون أسود . إحساسها ، قطيفة لحمتها الحياة بطولها ، سداها الموت بعمقه . حياة بلا نبض الحياة . موت بلا همود الموت . حياة تموت . موت يحيا . فى لحظة لقاء متوهجة مكتومة معتمة ملعونة . اليأس لا يرتسم معنى . يبرز شكل أرض تسيخ تحت رجليها . الأرض تنفتح . بئر تقع فيه بقدميها أولا . تحاول قدماها أن تتمسكا بأرض ، بتراب الأرض تغور . هى يشدها البئر . يشدها البئر . إنها داخل البئر .. داخله .. يشدها .. يشدها .

يحاول فتح اللّـه أن يمد يده ، يمسك شيئًا لا يقبض عليه . الحياة ليست وقفًا على إرادتنا . تعاش مرة واحدة . اكتشاف لا يدريه إلا وهو يفقد هانم . على الخشبة تمدد الجسد . غسلته المغسلة . وضعت القطن على المخارج . كلوب صغير خافت الضوء تقدم النعش ، النعش على كتف فتح اللّـه . واحدة من مقابر الحريم ، انزلوها برأسها ، قالب من الطوب الأخضر تحت رأس الجسد المسجى . أهيل التراب . فقيه ضرير جلس خلف القبر يردد كلمات كئيبة . لا وقت للحزن . رجع المشيعون

لا يزيد عددهم عن أصابع اليدين . تخلف فتح اللّه . وقف وحيداً .
الكلوب يبتعد . على المقابر يزحف ظلام ثقيل .. أمه .. سيد أبو دراع ..
عبد الشاطر .. أخيراً هانم .. الظلام .. السكوت نواح خافت يأتيه من
بعيد ، من داخل البلد . بلدة كئيبة ، مقبضة ، ليس بها ما يربطه إليها .
يبرز وجه خالته تضيع في جهامته ابتسامة يلتقطها فتح اللّه دائمًا .
الأصابع الطويلة المعروقة . تحركت قدماه . كان الطريق الثانى من داخل
المقابر يقود إلى جسر المصرف النظامى ، الجسر الذى ترقد البلد
الموبوءة فى ظله . سارت القدمان . تيهة مشاعر تلفه . لا يعرف شيئًا .
لا يدرى شيئًا . لا يرغب فى شىء . لا يرغب عن شىء . كل شىء كأى
شىء . ماتت هانم حقا . هو يحبها الآن . ما عادت سدا فى وجهه .
خالة أنا هـ . هج . هـ . هج يا خالة . القدمان تخطوان . الكون كله
ظلام وفراغ . تحت المقابر ظلام وفراغ . على سطح الأرض ظلام وفراغ ،
السماء ظلام وفراغ . وأنتم يا رجال الليل ، يا أصحاب ، قادم إليكم ،
لم أقتل السيد أبو دراع صدقونى ، ردوا ، مدوا أيديكم ، عيناى توشك
ألا ترى موضع قدمى .. رصاصة واحدة تضىء الطريق .

* * *

كل شىء حقيقة

.. أمام المربع الذى كونه التقاء نهاية بطن الجاموسة البلجة مع فخذها الأيسر ويتدلى من وسطه الضرع ، جلست « نجية » على قزحها .. مسحت داخل الطاجن بيدها اليمنى ونفخته .. بين ركبتيها وصدرها وضعته .. ضغطت بركبتيها قليلا لتحكم تمكنها من وضع الطاجن .. ضغط الطاجن بجدارة المواجه لصدرها ، حلمتا نهديها ... أحست الدفء الخفيف فى جدار الطاجن .. سرت رعشة لم تحسها فى بدنها كله .. تركزت ململمة فى حشو بطنها السفلى .. ارتجافة واضحة فى الجزء الداخلى من رحمها .. وبلا تحديد تعرضت « نجية » لتيه مشاعر وارتعاشات و إحساسات وضيق لم تدر سببها .. لو أنها حرة نفسها لقطعت مشواراً جرياً على جسر الترعة .. اكتفت أن نفخت واتبعت نفخها استغفار اللّه العظيم .. حزنت حزن امرأة أتت المحظور .. بأصابع يديها الاثنتين شدت بزاز الجاموسة الأربعة كل على حدة ، برفق ، فى حركة حلب وهمية .. إلى أن حنت الجاموسة .. انتصبت البزاز فى كف « نجية » إسفنجية ، دافئة ، منتفخة باللبن .. عدلت « نجية » من وضع أصابعها ، وبين السبابة والإبهام ، ومن عند التقاء البز بالضرع .. عكمته ، ونزلت ضغطًا ، فانبثق سرسوب اللبن حارا مندفعًا إلى قاع الطاجن محدثًا طشيشًا يطفئ الظمأ .. خلا دماغ نجية وجسدها من أى شىء سوى حركة انتقال اللبن من ضرع

الجاموسة إلى الطاجن . تحت سقف الزريبة حوم عصفوران من أعشاش القش الكثيرة التى بنتها هذه المخلوقات الدخيلة بين سقف عيدان الغاب .. اصطدم واحد من العصفورين باللمبة العافورى فوقعت على الأرض .. أظلمت زريبة جابر أفندى .. نهق حمار من طرف الزريبة .. رد عليه من طرف العزبة حمار آخر .. قطع عجل بقر الحبل الذى يربطه إلى المدود .. تشمم أمه المربوطة إلى جواره .. كانت عشاراً .. لم يمنعه ذلك من محاولة اعتلائها .. ابتعدت عنه بنصفها الخلفى نافرة .. تبعها .. شدت البقرة رقبتها ، فانقطع الحبل الذى يمسكها إلى المدود .. داست فوق الجاموسة الكديش المربوطة إلى جوارها .. كانت - بلا أحلام - تجتر .. قطعت عملية الاجترار ووقفت .. فى الظلام أحست « نجية » صف البهائم قد انطلقت وأنها موشكة أن تدوسها . رفعت الطاجن .. وقفت على حيلها .. لطم رأسها وطواط يحوم فى سقف الزريبة .. حاولت أن تتلمس طريقها بين الجاموس والبقر والحمير .. غارت قدمها فى درقة جلة ساخنة .. أحست بحنق وضعف .. ارتسمت داخلها لعنة على البهائم وآبائها وعلى أصحابها وآبائهم .. لم يكن جابر أفندى فى ذهنها وهى تلعن أصحاب البهائم .. كلماتها المنطوقة كانت نداء مكرراً على سيدتها الحاجة فطوم .. جاء حسان تسبقه دائرة ضوء ملقاة من بطارية .. دائرة الضوء تتحرك فوق الوحل والشرب ، وبولة حمار بالها فى موضع حافر جاموسة غائر .. البولة صنعت بحيرة .. أعواد برسيم متناثرة .. عين حسان تسجل .. مع أن

حسان بقده يسير فى الظلام خلف دائرة الضوء فإن « نجية » رأته فى طول باب الزريبة ، أطول من صالح ، الرجل الذى خرج ذات صباح مع البهائم وعادت البهائم دون عودة صالح . تبينت نجية بوضوح داخل رأسها أعلى صدر حسان تكشف عنه فتحة طوق جلابيته .. البريق فى الظلام يخيف - لا نعرف لم - لكنها بحثت عنه بعينيها فى وجه حسان .. أوقد حسان اللمبة العافورى .. وضعها مكانها فوق رف الزريبة .. نادى صبيا لربط البهائم .. اندار خارج الزريبة .. حسان الصعيدى - حسب ما تناديه نجية بصوتها - لم تألف منخاراه بعد رائحة زرائب الفلاحين .. الزريبة برمتها فى خياشيم « حسان » دكان عطارة .. فى أنف نجية تكاد تكون كل رائحة محددة ، بول الحمير له رائحة مالحة مقيئة .. الجاموس والبقر بوله مائع الرائحة ، تكاد لضيقها به أن تتحسسه بلسانها .. كارهًا . استجاب حسان لطلب « نجية » .. أمسك برأس الجاموسة البلجة حتى تنتهى نجية من حلبها .. الاشمئناط المرتسم على وجه حسان كان مناسبة لأن تسأله نجية عن عدد الذين قتلهم فى الصعيد .. حسان فوضها أن تختار العدد الذى يروقها .. حسان لا يفرق بين أن تقتل مرة واحدة وأن تقتل ألف مرة .. حسان الواقف أمام رأس الجاموسة .. على حدقتى عينيه ضوء اللمبة العافورى الباهت الذى يشغل وسط الزريبة .. أركان الزريبة الثمانية مطموسة تحت ظلام لا يصله ضوء .. ظلال البهائم تقع مختلطة على أجسامها .. الصبى مازال يربط البهائم .. أعواد قش فى أعشاش العصافير تتدلى

من سقف الزريبة .. أنفه يلتقط الروائح الفواحة يحاول أن يميز بين كل رائحة على حدة .. صوت شخب اللبن فى الطاجن تتعوده أذناه .. همهمة نجية مصرة على أن تعرف العدد الحقيقى للناس الذين قتلهم .. مخيلة حسان هناك .. ينزل من مغارة فى بطن الجبل .. فى كتفه البندقية الميزر .. يتطلع إلى السماء .. يشاهد نجمات أربع .. الليل انتصف منذ وقت ليس باليسير .. هذه المغارة فريدة .. تقع فى منطقة .. تتنكر كل من محافظتى أسيوط وسوهاج تبعيتها إليها .. ظلمة الصعيد ظلمة صافية ، ظلمة خالية من اللود الأسود ، ظلمة ظل الجبل يختلط والشمس وراءه ، بالسحاب .. لكن ناسه سود عجاف .. العيال كلهم عيانين .. انتهت نجية من حلب الجاموسة البلجة .. سار حسان أمامها باللمبة .. نجية تسأل ، حسان يرد ، إنه سيغنى الليلة .. إزاء ما أخبرته به نجية من أنها ستحضر الفرح ، أحس حسان بالتزام الشهامة – فهما يعملان فى دار واحدة – أن يرعاها فوق السطح وهى مع بنات ونسوة العزبة اللائى يتفرجن على المغنين ، وأن يصحبها عند عودتها بعد انتهاء الفرح .. نجية تحاول أن تعرف من حسان الموال الذى سيغنيه .. حسان يرد بكلام لم تفهمه نجية . حسان ليس محترف غناء مواويل .. سيغنى الموال الذى يخطر على باله .. انتهت نجية من رص طواجن اللبن وغسل المواعين .. وقبل أن تنصرف سألت سيدتها الحاجة فطوم تسأذنها فى الانصراف .. الواجب الأخير على نجية أن تؤنس سيدتها مع العيال حتى عودة جابر أفندى من الجامع بعد صلاة

العشاء .. زامت نجية .. فى ذهنها أن جابر أفندى ليس ممن يحرصون على الصلاة ، حسان موضوع حديث الحاجة وخادمتها . حكت الحاجة أن حسان قاتل ، وأنه قد قتل أمه لأنها تزوجت رجلا آخر بعد وفاة أبيه ، وأنه قد هرب بعد جريمته . تعجب الحاجة من أمر حسان ، فهو رجل طيب ، وابن حلال ولا يرفع عينه أبداً ، وأصابعه مثل أصابعنا نحن .. نجية استأذنت سيدتها فى تصحيح الحكاية ، فحسان قاتل حقا ، ولكنه لم يقتل أمه بل قتل زوجته وقد ضبطها فى حضن واحد من أصحابه .. حسان قتل الزوجة ومازال ينتظر الفرصة حتى ينسى الناس وينسل عائداً إلى الصعيد لقتل العشيق ، وطلبت نجية من سيدتها ألا تأمنه ، فكل القتلة يبدون طيبين أبرياء .

جابر أفندى ، شيخ العزبة الذى لا يلبس طربوشًا ، رجع من الجامع فى رواية زوجته .. ومن مكان آخر فى زعم نجية .. جابر أفندى له معلوماته الإدارية التى تخالف معلومات حريمه ومعلومات خادمته ، حسان مجرد ولد حرامى من الأشقياء ، وذات ليلة كان يسطو على منزل رجل طيب مستور .. الرجال الطيبون فى الصعيد قلائل .. استيقظ صاحب الدار وضبط حسان يسحب البقرة .. حسان قتل صاحب الدار .. لم يبق أمامه إلا أن يهرب من الصعيد كله ، ويسيح فى وجه بحرى ، ويحتمى بأهل السطوة .. جابر أفندى هز رأسه ولكنه لم يخبط على صدره بطرف أصابعه المفردة .. الحاجة فطوم بدا منها ما يدل على عدم التصديق .. كادت تقص حكاية قتل حسان لأمه .. اندهش جابر

أفنـدى من أن زوجـتـه الحـاجـة لم تـؤمـن عـلى كلمـاته التـى قالها والتى لم يقلـهـا .. مـع أن ضـوء اللمـبـة الغـاز نمرة عـشـرة لا يسـاعـد على إبراز مـلامح الجـالسـين فى المندرة ، إلا أن الحـاجـة فطوم ، وكـانت على خـلاف مـا يشى به اسـمـهـا ، ذات مـلاحـة ، تخـيلت تقـاطيع الـوجـه المندهش الغاضب ، وكما توقعت .. أسمعها جابر أفندى الحديث الذى نسبه إلى نبى المسلمين عن نقص عقل النساء و إيمانهن .. آمنت الحاجة فطوم .. حوقلت .. بسملت صلت على من وضعت يدها على شباكه ، البت نجية اعترضت على سيدها .. أقسمت بالست زينب الطاهرة أن حسان قتل زوجته .. وتوجهت بحديثها إلى جابر أفندى خاصة ، مؤكدة أن ليس أطيب من النساء .. جالت بعينيها – فى حسد – على جدران المندرة .. مطلية بالجير الأبيض .. أجزاء من الطلاء سقطت عن طبقة الطين الأسود .. صورة دياب بن غانم على فرسته البيضاء يطعن بحربة طويلة الزناتى خليفة .. دارت نجية مع الكنب الإسطامبولى .. عم الشحات خفير الحكومة ، ألقى بندقيته إلى جواره .. ينفخ النار فى الطاجن يسوى عليها براد الشاى .. الدموع تملأ عينى الشحات من الدخان وتنزل إلى شاربه الكث المهوش .. جابر أفندى بين شفتيه غابة الجوزة .. جابر أفندى يقطع بأسنانه قطعة حشيش يناولها إلى عم الشحات .. شيخ العزبة يتهم الخفير بانقطاع النفس .. فجأة تتذكر نجية الفرح وحسان .. تهب خارجة إلى الشارع متجاهلة نداء جابر أفندى .. مهمهمة فى داخلها بما يمكن أن يصاغ فى كلمات .. حرام عليكم يا ناس يا كفره يا أولاد ستين كلب .. سيبونى أشوف نفسى .

(٢)

ألقت نجية حزمة برسيم إلى الأرانب داخل جحرها تحت المصطبة التى تشغل أكثر من نصف الحجرة والتى تتخذها منامة تفرش فوقها الحصير .. ألقت نجية بحزمة برسيم ثانية إلى الخروف الصغير المربوط فى البحراية .. نظرت إلى مشنة العيش .. افتقدت رغيفين وحزمة بصل وقطعة جبن قريش .. عرفت أن اسم النبى حارسها ابنتها هانم قد تناولت عشاءها .. غسلت نجية رجليها ووجهها وتزينت وارتدت فستانها الكستور المشجر الذى زفت فيه إلى صالح .. رغم أن الجلابية أو الفستان متلازمة مع صالح ، بحكم أنه هو الذى اشتراها . وبحكم أنها قد لبستها لأول مرة من أجل صالح ، فإن نجية لم تذكر صالح ، ولم يرتسم فى مخيلتها ، بل إن نجية لم تربط بذهنها بين ابنتها تلك التى تأكل أرزًا ولبنًا مع الملائكة ، وبين صالح ، وهو الرجل الذى وضع داخل نجية بذرة هذه الابنة ، إن « صالح » خلافًا لكل معلوماته رغم أنها من أخص خصائصه .. وضع بذرة هانم ظهيرة يوم صائف قضى ليلته بعيدًا عن نجية فى غيط القطن .. ليلة قضاها ساهرًا تحت الساقية كى يقوم بتوزيع ما تدفعه الساقية من ماء على خطوط أرض القطن ولو سها أو نام وغرق القطن وذبل فعقوبته يعرفها جيدًا .. علقة من جابر أفندى أو اتهام بسرقة المحراث الخشب .. صالح جاء ظهرًا إلى حجرة نجية .. انسل وألقى بنفسه على المصطبة .. دخلت نجية .. جلابية صالح متكورة تحت جسده .. رجلاه مكشوفتان .. سيقان لا تأخذ لونها

من الألوان المعروفة .. أسود ، أزرق ، أصفر ، أبيض مدلوقة تحت جلد صالح .. شعر جاف خشن .. باطن قدمه لا تستطيع أن تحدد ما إذا كانت مغسولة أو مغطاة بطبقة من الطين .. على أن هذا الطين – على فرض وجوده – لم يعد طينًا .. إنه طين تآلف مع الجسد الحى .. أخذ منه وأعطاه .. خضع الجسد والطين فى القدم لمتطلبات المشى والجرى على الشوك والتراب ساخنًا يحرق فى الظهيرة وباردًا يرجف فى الشتاء .. فى بطن القدم شقوق .. فى الشق الواحد تخفى أصبع طفل .. تأملت نجية الجسد ، لا تحس أنه مكدود .. لا تسمع الشخير العالى الصادر عن جهاز تنفسى مختنق . فى أذنى نجية طنين .. طنين لا علاقة له بالشخير .. طنين حقيقى بلا رمز أو دلالة .. جسد صالح تعرض لعملية هز قاسية عنيفة .. نجية تسأله ، إذا كان يريد أن يشرب ؟ كذلك تطلب منه أن يغطى نفسه .. قصارى ما فعله صالح أنه أعطى ظهره للجدار .. كانت الحصيرة مثقوبة فى الموضع الذى التقت فوقه نجية وفريستها .. ظهر نجية لم يحس بالثقب .. لا لتشابه بين ظهرها وقدم صالح .. الثقب قد نعمت ورقت وتآكلت حوافيه . لأن الحصيرة ولونها معًا قد خضعا لعوامل الزمن .. عينا نجية المتجهتان إلى السقف لم تسجلا طبقة الهباب والسخام وهى طبقة حقيقية من الهباب .. طبقة من الهباب بلا رمز أو دلالة .. شبشب نجية يطرقع بصوت مسموع على أرض الحارة .. نجية فى طريقها إلى الفرح .. فوق السطح الذى يطل على الوسعاية داخل العزبة وبين النسوة والبنات ،

كمنت نجية .. ضوء الكلوبات التى تنير الوسعاية سقط على وجوه النسوان فوق السطح ، الكحل الأسود فى العيون وعلى الرموش ، لطشات اللون الأحمر على الخدود بانت .. فى الوسعاية ذاتها تحلق الرجال والأولاد جلوسًا على الأرض فى أيديهم شماريخ وخيرزانات من سوق الخميس فى السنبلاوين ، عصى من فروع شجر وزارة الأوقاف الذى يحيط بالعزبة والغيطان .. بندقية الحكومة معلقة على كتف الخفير الميرى .. الخفير يهش بخيرزانة طويلة خطفها من ولد غنام .. الخفير يطلب من الرجال بأسمائهم أن يسكتوا ومن الأولاد منسوبين إلى آبائهم ، أما الأولاد الذين مات عنهم آباؤهم وهم صغار فينسبهم خفير الحكومة إلى أمهاتهم .

– البت هانم بنت نجية .

وتبادلت النسوة فوق السطح أماكنهن إلى أن جلست كل منهن أمام الوجه الذى تبحث عنه ويبحث عنها .. التقت عينا نجية بعينى حسان .. ابتسمت نجية ولم يبتسم حسان .. وغنى لطفى الميهى من رجال العزبة موالا عن شجرة السنط التى رواها بدمع عينه فى بؤونة .. حبيب المغنى الذى يجوب قرى وعزب وكفور العب .. يصنع النشوة بصوته الخشن غنى موالا عن البنت بيضاء اللون التى ترعى البل فى الحنة .. طلب الرجال حسان .. دون قصد ، وقعت عينا حسان على نجية وهو يغنى :

- ملا .. ملى قربته

ميه تصافى نيل

- ملى وسابها يا ليل

فى الشرع تلزم مين

- تلزم جدع جد

يسوى من الرجال ألفين

.. انتفضت مهتاجة الأجساد النحيلة المرهقة بحصوات الرمل ، متعددة الأحجام والتراكيب ، داخل قنوات الكلى ، وجع الجنب الذى يحاشون ذكر اسمه صراحة ويسمونه المخسوف ، وقف الرجال كلهم منتشين فى فرح غامر لم تفرزه بذاتها هذه الأجساد ، فالمثانة مليئة ببول مدمم ، وارتفعت العصى والنبابيت ونطقت الألسن المكتومة ، التى لا تتحرك إلا لبلع الريق ، طالبة من الصعيدى مزيداً من المواويل ، ومحيية الرجال الظنايا ، وهاتفة باسم الليل والعين والحب والسجن والفقر والجدعان .. وانطلقت رصاصة شقت ببارودها المحترق ، ظلاماً فوق العب كله .

(٣)

مع الحوارى الضيقة المظلمة والتى يسقفها التقاء الحطب على جدران صفى الدور فيها .. مع نباح الكلاب على كل شبح .. مع نهيق

حمارين فى طرفى العزبة .. تنتقل خطوات حسان .. فى هوادة ..
فى جيب صديريته مدية داخل جراب جلد .. فى يده عصا غليظة
يتحسس بها السكة .. عصاة الصعيدى ذراعه .. فى رأسه صورة
ابنته .. لم تتعد سنتين .. مرت أعوام عديدة ولم تكبر صورة الصغيرة
عن آخر مرة رآها ، بطنها عريان حتى الصدر .. منتفخ قليلا .. أرجلها
رفيعة وجهها متسخ .. على عينها ذباب كثير .. الصورة ثابتة داخل
دماغ حسان .. ستظل الصورة كما هى باقية .. وقدماه تحملانه إلى كل
مكان ، إلا حيث توجد صغيرته . داس حسان على عصاه فوق
الأرض .. أذناه .. والصورة تتحرك ثابتة داخل رأسه . تلتقطان كلمات
نجية .. نجية مع أنها انتشت مع المنتشين ، حارت مع كلمات الموال ..
لم تتوقعه .. ليس فيه كلمة الحب .. نجية ترفض موضوع الموال ..
ترفض أن يكون من مجرد ملء قربة بالمياه أغنية يرددها الرجال فى
الأفراح .. حسان هو الآخر لأول مرة يفحص كلمات مواله .. لكنه موال
عزيز لديه .. طالما ردده لنفسه .. فى الظلام أحست نجية أن «حسان»
يبتسم .. لم تفهم لم .. لقد دمعت عيناه ذات مرة وهو يدندن لنفسه ،
داخل وعيه ولا وعيه جميعًا ، بكلمات الموال ، ذات ليلة كان مخلفًا وراءه
مدينة الإسماعيلية فى طريقه إلى الزقازيق .. كانت ليلة مظلمة ، قضى
أولها مشيًا ثم استراح إلى مقهى .. واحدة من المقاهى ، عشش صفيح
أو غاب تقام على جانب الطريق .. أصحابها رجال وأحيانًا نساء لهم
عين تعرف الغريب ولا تنكره .. تقدم له كوب الشاى الساخن .. كرسى

المعسل ولا تتردد عن دس حبة « أفيون » ودائمًا كلمة طيبة تفوق كل المخاوف .. صوت عم الشحات الخفير يستفسر من القادمين .. أخذ سيجارة من حسان .. نهر نجية بنت الكلب .. كيف لا ترد على جابر أفندى حضرة العمدة وهو يناديها .. لم تكتمل فى فهم عم الشحات كلمات نجية الساخرة وهى تحدثه عن الشرف الذى حصل لها من عم الشحات ومن حضرة العمدة .. ونغمت اللعينة كلمة حضرة العمدة بما زاد من ارتباك عم الشحات داخل معطفه الذى كان أصفر والذى ارتداه لأول مرة ذات يوم من ربع قرن مضى .. كان عهدة واحد من جنود الحلفاء واشتراه الرجل قبل أن يدخل خدمة الحكومة من سوق السنبلاوين .. بأربعة برايز استرد منها أجرة الأتوبيس ولم يخلعه منذ ذلك التاريخ .. وهو تاريخ حقا لا مجازًا ، لأن عم الشحات يؤرخ بهذه المناسبة ، فابنه أحمد أنجبه قبل أن يشترى المعطف بسنتين ، بل إن الإنجليز حاربوا الألمان سنى شراء هذا المعطف .. ومعطف عم الشحات و إن انتسب تاريخيا إلى أصل أجنبى إلا أنه الآن واحد من مواطنى العزبة .. مواطن مستقل ، حتى إن عم الشحات لو خلعه لهب المعطف فى الصباح الباكر مغادرًا داره إلى مسجد القرية يدخل دورة المياه يقضى حاجته ويتوضأ ويصلى ركعتين ويلقى على رجال العزبة فى طريقه إلى المسجد ، ومنه إلى داره تحية الإسلام ، ويرد التحية ، حسب الأصول ، فلو ألقاها واحد من الشغالة لردها « وعليكم السلام والرحمة » ، ولو ألقاها واحد من أوساط سكان العزبة يردها « وعليكم

السلام ورحمة اللّه » ، ولو ألقاها عين من أعيان العزبة .. وأعيانها قليلون ، لرد معطف عم الشحات التحية « وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته » وسارع المعطف بتقبيل اليد .. بل إن المعطف يحمل فأسه ، أعني فأس عم الشحات ، إلى غيط جابر أفندى أو غيط الوسيه فى العزب المجاورة .. و إن معطفنا .. وقد صار عم الشحات واحداً من الساهرين على أمن المواطنين .. يحمل البندقية ، ويكوع على مصطبة بعينها ، ويعترض القادمين ، ولا ينسى أن يطلب سيجارة من المعارف ، ويقول نفس الكلمات :

- ازاى يابت يا نجية يابت ستين كلب ، جابر أفندى شيخ العزبة ينده عليكى العشية وما ترديش ؟

على أن الفعل الذى كان سيقدم عليه المعطف مخالفًا فى ذلك عم الشحات .. إنه ، لو أنه بمفرده ، ما تردد عن صفع نجية على وجهها جزاء سخريتها من جابر أفندى فى شخصه هو .

أمام حجرة نجية وقف حسان متهيأ للانصراف .. عزمت نجية بكوب شاى .. تناول حسان أربع بيضات مسلوقة برغيفين .. نجية تنفخ فى النار تعد الشاى .. حسان طلب عود حطب من النار يشعل به سيجارة .. أمسك نجية من ذراعها .. ندت عنها صرخة مفرغة من كل البنيان النفسى والعصبى للصرخة .. ومع أن حسان لم يفهم المسألة على هذا النحو ، فلم يفت الصعيدى ابن السكك التى لا تنتهى نوع

الصرخة التى أطلقتها نجية ، حسان أمسك ذراعها الثانى بيسراه ، تأوهت نجية ، أساء حسان تفسير الصوت ، كانت الآهة ألماً جسديا من اليد الخشنة ، لم تكن إشارة أن تقدم فالطريق مفتوح على ما يرام .. فى الوقت الذى كان حسان على المصطبة جسداً خالصًا كانت نجية غير خالصة لجسدها ، كان دماغها يعمل ، فى مخيلتها صورة صالح زوجها ، فى فكرها عتاب ليس كاملا لصالح ، بل إنها تذكرت مقام سيدى الشيخ صلاح الدين ، الذى قيد بغير حبال ، الرجال الذين حاولوا ذات ليلة أن يسرقوا زرع البصل من الغيط المقام فيه مقام سيدى الشيخ .. وقد أبقاهم بسره الباتع مربوطين إلى الأرض حتى جاء فى الصباح صاحب الغيط ، وهو الذى يقوم على خدمة المقام ، وتضرع إلى الشيخ صلاح الدين أن يصفح عنهم .. وإذ أيقن حسان أنه موشك أن يصل إلى هدفه .. طرقت أذنيه معًا تهديدات نجية مقسمة بحياة سيدتها زينب الطاهرة أنها ستصوت وتلم أهل الحارة وأهل العزبة جميعًا إذا لم يتركها .. تحرك شىء فى جسد حسان يدفع كفيه أن يطبقا على رقبة نجية ، شاهد لسانها يتدلى مع فقاعات اللعاب من فمها .. ونفذت من أذنه .. مرة ثانية .. كلمات نجية القاطعة طالبة أن يسيبها .. لم تكن نجية ترفض لقاء حسان ، بل إن تحقيق هذا الشىء بذاته كان ملء دماغها ، وملء كل خلايا جسدها ، منذ دخل الزريبة ، ووقف أمام الجاموسة البلجة ، حتى هذه اللحظة ، وهى تقسم بحياة سيدتها زينب الطاهرة .. وفى الوقت الذى كانت نجية فيه راضية بفكرها

ويجسدها ، رافضة بصوتها وبفعلها ، كانت عيناها تسجلان تهدم الرجل الذى أمامها ، بمتعة حسية ترتد بأصولها إلى الكهف الأول .. بشكل غامض ، ورغم شدة الرفض ، كان دماغ حسان بما يصل هذا الدماغ من مشاهدات تنقلها حسان إليه العين ، وعلى وجه الدقة : من خيوط من موقف نجية تنقلها عين حسان إلى دماغه ، ومن أصوات ، أو من خيوط من صوت نجية تنقلها أذن إلى دماغه .. من خيوط من فعل نجية وصوتها .. كان حسان يحدد أن رفض نجية ليس قاطعًا ، لذلك : فجهاده ظل مستمرا ، رغم كل التهديدات ، وطالت المناهدة حتى أنهك جسد حسان ، وعجز دماغه عن تسجيل خيط الرضى وسط حزمة الرفض .. تقدم الجسد يائسًا بلا تهدم يعارك نجية ، سجلت نجية التغيير الذى طرأ على الموقف دون إدراك ماهية التغيير .. المرأة التى كانت راضية بجسدها وبخيالها ، افتقدت الرجل يتهدم أمامها ، وواجهت جسد حسان وذراعيه .. حسان صار جسداً أعمى يعارك لا يعرف ، يعارك من أو يعارك لماذا ؟ وفقدت نجية المتعة ، وتوحد توزعها إلى رفض لا تكاد تعرف رفض ماذا ، لكنه رفض المطلوب فى لحظتها هذه ، وتصدى جسدها بأدواته .. جسد لا يثق فى قدرته الذاتية ، لكنه بدنيا مصمم دائمًا على أن يحمى نفسه .. لقط حسان الاستغاثة قبل أن تنطلق ، وفك ذراعيه .. سلك طريقه فى الحارة المظلمة الباردة لاهثًا .. لم يبتعد كثيراً قبل أن يلتفت على صوت أنثوى رائق حنون .. كانت نجية تمد يدها .

– السكينة ياسى حسان وقعت منك ع المصطبة .

(٤)

في الصباح الباكر .. أمام رأس الجاموسة الكديش ، وقف حسان يهرش جلدها فى المنطقة المحصورة بين قرنها وجنب رأسها ، والتى لا تطولها الجاموسة مهما حاولت حكها بظلف رجلها الخلفية ... الجاموسة ملقية برأسها على حافة المدود ، تاركة نجية تنقل اللبن من الضرع إلى الطاجن ، بنظرة جانبية رصدت نجية حسان .. رغم أن أذنى حسان لم يتغير وضعهما ، فقد رأتهما نجية متهدلتين كأذنى حمار بعد يوم كامل فى نقل الوحل من الزريبة إلى الغيط .. نجية لم تتأمل داخلها .. لا تعرف لم رفضت يقينًا ، فى ذهنها فكرة مبهمة عن أن ذلك حرام .. حرام لماذا ؟ لا تعرف .. كانت خالية من الزهو ، رغم أذنى الحمار المتهدلتين ، لم تعد ما حدث انتصاراً لها ، أو لفكرة رفض الحرام ، على أن ذلك لا يعنى أنها آسفة ، وحين سألت حسان عما إذا كان ما زال زعلانًا .. لم تكن تقصد أكثر من فتح باب للحديث معه .. حسان أذنه تسمع كلمات نجية بموقف من لم يحدد موقفه بعد مما حدث .. العمل يجمعه بنجية ، ومجرد لقائهما أو استماعه لها لا يفسر بأكثر من ذلك .. وهو يستمع وعينه تدور داخل الزريبة .. الزريبة واسعة .. ضوء الصباح أنارها .. بقرة تبول .. السائل يسقط من بين أعلى رجلى البقرة الخلفيتين .. النيل تتدفع مياهه من قناطر إسنا .. فى المغادرة ، بين محافظتى أسيوط وسوهاج ، حيث الاحتماء من رجال الشرطة .. سبحان اللّه .. كان اسمهم البوليس .. الرجال

هناك داخل المغارة .. يدخنون سجاير الحشيش .. برعى يفاجئهم بحكمة توصل إليها عن وضع المرأة .. إلى جانب كل رجل بندقيته .. المدفع الرشاش داخل المغارة .. برعى يقسم بالحرام من ذراعه .. برعى له زوجة لكنه لا يحلف بالطلاق .. تسارع دق قلب حسان أمام الجاموسة الكديش في زريبة جابر أفندى .. ابن برعى .. أعاد إلى سجن أسيوط .. أم ما زال يتنقل بين مغارات الجبل مغارة ، مغارة .. برعى يقص المعارك التى خاضها المطاريد .. برعى صاحب قلب لا يخاف .. السجن أكثر راحة وأمنًا من نهار الصعيد .. كانت أحلام الرجال عجيبة .. فى النهار يحلمون بالقبض عليهم .. البنادق تقف لا تطلق الرصاص .. فى أحلامهم دائمًا مكسورون أمام رجال الأمن .. اتفقوا ذات مرة طوال حديث ليلة .. إنهم فى أحلامهم أضعف منهم فى واقعهم .. فى الأحلام دائمًا يسحبهم رجال الأمن مربوطين بالحبال .. نهارهم مقبض مخيف بالأحلام .. الليل هم أبناؤه .. رجال الليل .. حكمة برعى .. ليلة .. أقسم بالحرام .. المرأة لا تستطيع أن تغتصب الرجل .. الرجل وحده فى قدرته أن يغتصب المرأة .. حكمة ربنا استنتجها برعى وأمن عليها رجال المغارة .. لكن « حسان » لم يستطع مع ذلك .. حسان لم يعد رجلا .. نزل من الجبل .. نجية لا ترضى هذا التوزع فى حسان .. هى لا تصل إلى أنه توزع فى حسان .. تفسره على أنه زعل مما حدث .. هى تخلط بين عودة التوزع داخلها نفسها بين الرضى والرفض ، وبين رغبتها بحديثها فى مصالحة حسان .. عودة نجية إلى

موقف الوسط بلا شك فى نفس الوقت خطوة تستلزم مصالحة «حسان» و إن تك خطوة لم تحسم المشكلة التى بدا أنها شاغل من نوع جديد يطرق حياة نجية .

كان طلب نجية إلى ستها الحاجة فطوم ، أن يصحبها حسان بالطحين إلى القرية المجاورة ، عملا داخل المشكلة ، بل إنه تعامل مع المشكلة وجهًا لوجه .. حسان يسوق حماراً يحمل زكيبة أرز .. نجية وراء حمار ثان يحمل زكيبة قمح ، فى طريقهما إلى مكنة الطحين الحديث بينهما حديث بين أصدقاء .. لم يعودا مجرد رجل وامرأة جمعتهما ظروف الخدمة فى منزل سيد واحد .. فى حاضر نجية ليس حسان الصعيدى .. ليس واحداً من الرجال العديدين الذين يلتقطهم جابر أفندى من الطريق ؛ يقدم لهم الرغيف وقطعة الجبن وباكو المعسل أو السيجارة .. وأخيراً الحماية .. أصبح .. وأصبح هنا فعلا كاملا .. أصبح حسان كائنًا محدداً بذاته داخل معارف نجية .. كأن ما حدث بالأمس لم يكن فشلا لحسان أو انتصاراً لنجية ، وهو كذلك ليس العكس .. إن صفتى الفشل والانتصار لا موقع لهما هنا .. نجية تحاول صادقة أن تجذب حسان إلى المنطقة التى وصلت إليها .. ترضى الآن أن تنعس فى حراسته .. لا تخاف من سكينة يضعها حسان على رقبتها .. ذلك لا يمنع أنها سمته قبلا ، قاتل قتلى جهلا به ، وهى تسمية الآن قاتل قتلى مزاحًا ودردشة ، وسأسميه فى الغد قاتل قتلى دون أن تدرى آنذاك حقيقة مشاعرها .. حسان يتلقى صدق مشاعر نجية ..

لا يحمل لها داخله كرهاً أو حبا .. امرأة فيها لون نساء وجه بحرى وملاحتهن وعادة لا يرفضن .. وهما يسقطان إلى المغارة إذ لم يكن لها باب ، بل ثقب على سطح الجبل ، برعى حذره من نساء الصعيد .. الأوجب الحرص من نساء وجه بحرى .. هذا لا يعنى أن « حسان » فى داخله سد صفيق يقف بينه وبين نجية .. هو محق لو أنكر مثل هذا الحاجز أساساً .. هو رجل مسالم ، لا يقوى أن يواجه التودد الإنسانى بالجمود ، أو باللامبالاة ، أو بالحذر .. سرعان ما ضحك كطفل ، وبانت أسنانه البيض وسط وجهه المستدير الغامق السمرة .. أشعل سيجارة .. عبر عن شفقة حقيقية إزاء المجهود البدنى الذى تبذله نجية فى منزل جابر أفندى .. نجية ترى أنها القسمة والنصيب ولقمة العيش .. القسمة والنصيب . هما رب حسان .. لكن لقمة العيش لا تملكه .. نجية تعارض مؤكدة لحسان أن لقمة تملكنا جميعًا .. عندما يعاود حسان إصراره على أن لقمة العيش لا تملكه تفاجئه نجية ، أنه لو كان يملك فى الصعيد أرضاً وبهائم مثل جابر أفندى ، ما ساح فى بلاد اللّه الواسعة.. حسان لا يغضب ، يقتصر على أنه لا يرضى أن يكون مثل جابر أفندى .

عندما عادا وقد بيضا الأرز وطحنا القمح ، كانا قد اتفقا على الزواج .. نحن لا نملك مضبطة الحديث بين حسان ونجية ، الثابت لدينا أن الحاجة فطوم – كعادتها – اندهشت من اقتراح نجية أن يصحبها حسان إلى مكنة الطحين ، وأنها – الحاجة – قد أفضت إلى زوجها بمخاوفها التى تراها برهانًا على أنها امرأة حريصة واعية ..

جابر أفندى - كعادته - سخر من مخاوف زوجته ، ولم تمنعه السخرية - كالعادة أيضًا - من أن يأخذ برأيها ويبحث عن آخر يصحب نجية ، وووجه فعلا بعدم وجود من يصحب خادمته وهى تطحن الطحين .. فالغيط ألزم له الخفراء . وتمادى فى إظهار سلطته الإدارية فى مواجهة زوجته بإصراره على أن يكون حسان مع نجية ، وفى السر اتصل ، عن طريق تليفون الحكومة .. بعمد القرية المجاورة ، بصاحب مكنة الطحين .. نقلت نجية إلى حسان مخاوف سيدتها . رد الصعيدى الطيب أنه عندما يريد أن يسرق فلن يركب حمارًا ليسرقه ، بل سيركب جابر أفندى نفسه ..

الثابت لدينا كذلك ، أن حسان ، رغم أحاديث المغارة ، وقد أحس التودد فى كلمات نجية ورغبتها الصادقة أن تنقله إلى المنطقة التى وصلت إليها فى علاقتها داخليا بحسان ، لم يكن لديه بقلبه الطيب أن يواجه صدق نجية بالحذر أو الجمود .. حسان سأل نجية عن أصلها ، وفصلها ، وماذا أوقعها فى دار هذا الرجل .. نجية بلا أصل وبلا فصل وبلا حكاية ، شبت فى دار جابر أفندى .. أمها كانت قبلها خادمة فى دار جابر أفندى .. لم تر لها أبًا .. ولولا أن اسمه منقوش على ختمها ما عرفت اسمه .. لم تحدثها المرحومة أمها عن أبيها .. المعلومة الوحيدة الأكيدة أن أباها لم يكن من رجال هذه العزبة .. أمها نفسها ، والله وحده هو العالم ، لم تكن من نساء العزبة .. الناس فى العزبة لا ينسبونها إلى اسم أبيها أو حتى إلى اسم أمها .. نجية التى تخدم

فى منزل جابر أفندى .. نجية زوجة صالح الذى يخدم جابر أفندى .. ارتسمت فى مخيلة حسان أرض الصعيد .. رملية صفراء .. غيطان العدس بنواره .. بنواره الزاهى .. البطن الصغيرة العارية المنتفخة .. الأرجل الرفيعة .. حادثة الأمس نقلت نجية إلى جوار حسان .. رغم أن الحادثة لم تحقق غايتها ، ولم تحقق إلا ذاتها ، ولم تخط خطوة واحدة أبعد من كونها قد حدثت .. حسان انتقل إلى جوار نجية بشىء مختلف عن حادث الأمس ، بل .. رغم حادثة الأمس .

و إذ علمت الحاجة فطوم بموضوع الزواج - كعادتها - اندهشت ، ورفضت على أساس أن الرفض يعطيها صفة الحذر والحرص ، فضلا على أن حسان فى زعمها قاتل .. جابر أفندى هز رأسه ، فحسان ، فى زعمه ، مستعملاً لفة عمد بلدنا ، مجرد متشرد ، حرامى ، لم يجد من يرد .. على أن حسان أمامنا ، وعلى غاب الأرغول غنى موالا لم تفهمه نجية ، أولم تحاول أن تفهمه .. والموال نفسه ، أثار دموع حسان ذات ليلة .. حسان لم يخترع الموال ، ولذلك فالموال لا يفسر حسان ولا يفسر الزواج ولا يفسر الموال أى حدث تاريخى .

(٥)

.. فى أوراق مركز شرطة السنبلاوين ، أو محافظة الدقهلية ، لا تنسب العزبة إلى جابر أفندى .. جابر أفندى نفسه ليس أفنديا .. إلا أن هذه الأوراق لا تلزمنا .. ولن نعرف العزبة إلا بعزبة جابر أفندى .. رغم الطاقية وَبَر الجِمَال التى تعتلى يا فوخه .

.. على طريق الجازورين ، الذى يربط عزبة جابر أفندى بأكبر قرية مجاورة ، والذى قطعه حسان ونجية فى الصباح ذهاباً إلى مكنة الطحين وعودة منها .. وبين الأشجار العالية فى ظلمة لم تصبح بعد مخيفة .. بين الغيطان الخالية من البهائم والكلاب ورجال العزبة وأولادها ونسوانها .. على طريق الجازورين .. سار حسان ونجية ولطفى المغنى .. شبشب نجية يمتص تراب السكة صوت طرقعته الذى كان حريا بها أن تسرى فى الليل إلى مسافات بعيدة .

لطفى يدندن داخل نفسه .. حسان لا يعرف تحديداً ماذا هو فاعل .. كان قد اتفق مع نجية على الزواج .. الزواج فى ذهنه لم يرتبط بمأذون وبشهود وبعقد ، وأن تكون نجية زوجته .. عندما بدأت أولى الخطوات لم يمانع فى تنفيذها ، وإن لم يكن قد تصورها ولو أن نجية طلبت منه أن يصحبها إلى المأذون لرفض ، لكنه لم يمانع فى الذهاب إلى المأذون لأنه تنفيذ لاتفاق ارتبط به .. ذلك لا يعنى أن حسان بلا خيال .. ففى دماغه دائماً صورة ليل الصعيد مقمراً ، تهز رءوس النخيل فيه نسمات منحدرة من الجبل ، وصوصوة كروان ، وإن لم يعرف اسمه ، وقد ينزل إلى مدينة أسيوط فى وضح النهار . لا لأنه لا يتصور أن المخبرين قد يلاحقونه ، ولكن لأن الرجال فى الجبل اختاروه أن ينزل المدينة لزوم العمل .

.. فى أول الطريق أحست نجية ، وهى لا تكف عن الكلام ، بأسفٍ ليس لأن بختها قد خاب مع زوجها صالح ، بالتحديد لأن اللون الأحمر

على خديها من ورق التفتة ، غطاه ظلام الليل مع الكحل الأسود الذى أطبقت بجفنى عينيها على مروده .. خففف من أسف وحزن نجية . إنها هناك فى حجرة المأذون ، وقد وضع اللمبة نمرة عشرة أمامه على الطرابيزة ، وسألها عن اسمها ، وطلب منها ترديد الكلمات التى تعرفها، وطلب منها الختم .. هناك ستبدى حياء شديداً ، وتبدو لكل العيون حمرة الخدين وسواد العيون وخصلة الشعر التى سحبتها من تحت المنديل المطرز بالترتر الزجاجى ، وشغلت جزءًا من جبهتها ونزلت على أذنها .. دلالة أنها ليست بنتًا صغيرة .. بل امرأة تعرف أن تنتف بتراب الفرن المحترق شعيرات الجبهة والوجه والساقين .. وعمومًا تعرف كل أفانين المرأة ..

.. أمام المأذون .. كان لطفى هو المتحدث .. ففى داخل لطفى وهو مغنى العزبة ، أنه ثمة علاقة قد لا تكون واضحة ولكنها موجودة ، بين مهنته كرجل يغنى فى الأفراح وبين مهنة المأذون كرجل لولاه ما تقوم هذه الأفراح .. هذه العلاقة ليست وحدها ما يدفع لطفى على أن يتقدم إلى المأذون ليساومه على أجر عقد القران .. رباط قوى أو لنقل صداقة بين لطفى وحسان .. لطفى الغلبان .. هو الرجل الوحيد فى العزبة الذى لا يحمل احترامًا حقيقيا لجابر أفندى ، ويسميه بينه وبين حسان .. البغل ، ويقسم بالطلاق ، وهو لم يتزوج بعد ، أن لا فرق بين جابر أفندى وبين الحمار غير أن الحقيقة وراء ذلك ، أن لطفى لا ينسى أن جابر أفندى طلب منه أن يشترى فأسًا ويشتغل شغلة يأكل منها عيشًا بدل الكلام الفارغ الذى لا يفيد ، وهدده مرة بعمل محضر تشرد .

.. كما توقعت نجية تمامًا كل شيء حدث . حجرة المأذون مطلية بالجير الذى كان أبيض وصار أسود وأصفر من الدخان .. النقوش على الجدران .. سفينة كبيرة .. مقام كبير .. المأذون حج إلى بيت اللّه .. قطع الجير التى تساقطت من طلاء الجدران شكلت هى الأخرى نقوشًا أكثر إفصاحًا عن نفسها .. اللمبة نمرة عشرة .. الطرابيزة .. ابن المأذون حضر ليكون الشاهد الثانى .. المأذون لم يكن يقصد سؤاله بذاته حين سأل نجية عن سنها .. شهقت نجية لا لأنها تستكثر أن تكون صغيرة إلى الدرجة التى لا يفطن فيها المأذون إلى بلوغها سن الشرع .. لأن هذا المأذون بالذات سبق أن عقد زواجها على صالح .. مرت بيدها على خصلة الشعر المسحوبة من وسط منبت رأسها وأفضت إلى المأذون بما ظنته واحدًا من معلوماته الأكيدة .. سيدها الشيخ سبق أن زوجها من صالح .. ترك المأذون الريشة .. عاتبها على أنها لم تخبره من الأول ولم تقدم له قسيمة الطلاق .. المأذون لم يصدق أن صالحًا لم يطلقها .. صالح منذ ثلاث سنوات سحب بهائم جابر أفندى مع باقى الشغالة وعادت البهائم والشغالة ولم يعد صالح .. انتظرته ولم يعد .. نجية كادت أن تخصص جزءًا من الجلسة للبكاء .. نظرة إلى حسان و إلى المناسبة منعتها .. كلمات المأذون قاطعة فى عدم جواز إتمام العقد إلا بعد استخراج قسيمة طلاق من المحكمة .. أضاف المأذون أن ذلك الزواج لو كان تم لكان زنا لا زواجًا .

.. حسان لم يفهم المسألة تمامًا .. كاد أن يلوم المأذون ، لولا أن قاعدة منعته ، أن هذه هى مهنة المأذون ، وهو أخبر بشئون مهنته .. نجية أنكرت موقف المأذون .. امرأة صادفتها فى صحن الطبيخ حبة كوسة مرة .. لا تستغرب أن تكون هناك حبة كوسة مرة .. تعرف أنها تستطيع أن تفرز هذه الحبة المرة قبل أن تضمها إلى الطبيخ .. تقابلها الحبة المرة فتنكر وجودها .. بالنسبة للمأذون نفسه ، فلم تقطع بجديته فى الامتناع عن عقد الزواج ، وعندها يقين أنه لو قبض أكثر أو طلب منه جابر أفندى فسيتم الزواج .. تعرف أن المأذون يقينًا يحتفظ فى مخه بحل ما لكنه لا يبديه للفقراء .. بعيداً فى أعماقها هى ، كانت المنطقة بين هذا الزواج والزنا غير بينة الحدود .. الزواج يسبقه كتب كتاب ، وها هى تود أن تكتب الكتاب .. كلما ارتفعت من داخل أعماقها اشتبهت بالحدود حتى تصل إلى أن ذلك ممنوع ، ولكنه ليس مستحيلا ، ولو حضر جابر أفندى فالعقد حتماً سيعقد .

.. فى طريق العودة لم يصرح لطفى لصديقه ولابنة عزبته أن ذلك فعلا حرام ما لم يحضر صالح ويطلق نجية .. لكن أين صالح .. حرام أن تبقى نجية بلا زواج .. بقاؤها بلا زواج وهى شابة سيدفعها إلى الوقوع فى المحظور .. لطفى كان صاحب فكرة عقد القران عند مأذون القرية المجاورة .. فالسيئات التى يتحملها أهل العزبة .. يدفنون موتاهم فى مقابر القرية .. يشترون السكر والجاز والزيت والشاى والمعسل من دكاكين القرية .. يعقدون زواجهم ويفضونه عند مأذونها .. هذه السيئات

أفسحت أن يقترح لطفى عقد القران ، فى الليلة التالية ، عند مأذون قرية أخرى يعرفها ، وغنى فيها ليال بطولها .. المطلوب فقط إنكار سبق زواج نجية .. طلب من نجية ألا تضع الأحمر والأسود ، وأن ترفع المقصوص من فوق جبهتها ، حتى يكون زواجاً من أول وجديد .

.. لأن الزواج لم يتم بعد ، فقد أوصل حسان وصديقه .. نجية ، إلى دارها واتجها إلى دار لطفى .. دخنا المعسل والحشيش ، دندنا مع رجال القعدة .. أنشد لطفى بإلقاء عاد منغم ..

ردده معه ووراءه رجال القعدة .

أنا زارع شطين باميه

عند الساقية البحرية

كان عندى حماره عرجه

نفدت من العسكريه ..

.. الرجال ينفجرون ضاحكين .. لطفى عنده خزين من المواويل الحمراء .. يحفظ كثيراً من النكات والنوادر والحواديت ، وليس هناك من يغلبه إذا دخل معه فى قافية .. وفوق ذلك عنده كثير من الكلام الهلس .

.. فى الليلة التالية تم عقد زواج حسان ونجية .. دس حسان صورة عقد الزواج فى جيب صديريته مع نصف قرش حشيش .. لطفى

كان قد اقترح أن يقيم لصديقه .. ليلة عرس ، يغنى فيها حتى الصبح . يدعو إليها زملاءه من مغنيي القرى المجاورة .. تدور الجوزة على الرجال .. يحرقون المعسل والحشيش .. يصهللون .. لطفى وإن يك حسان غريبًا ، لا يراه أقل من أى واحد من أهل العزبة الخرفان الذى يؤنس لياليهم .. نجية وحسان اعترضا على اقتراح لطفى .. خبط حسان على كتفى لطفى ، مقدرًا فيه الرجولة والشهامة .. متزحزحًا قليلا عن فكرته من أن الرجال فى الصعيد ، أما وجه بحرى فحمير شغل .

الظلمة والسكون فى السماء وفوق العزبة .. المدقات التى تصل العزبة بما حولها من غيطان وقرى وكفور لا يتعرفها إلا أبناء العزبة .. معطف عم الشحات من فوق مصطبته فى أول العزبة .. اعترض القادمين .. نجية قدمت وجبة عشاء خفيفة لزوجها وصديقه .. أرز وبيض مسلوق محمر فى الزيت .. احتفظت بِذَكَر البط وحلَّة المكرونة حتى تخلو مع حسان .. اللمبة العافورى التى أسهمت شعلتها فى صنع طبقة الهباب فى سقف الحجرة ، اتخذت مكانها تحت المصطبة .. لمبة جاز نمرة خمسة تضىء الحجرة .. هانم مزاحة بعيدًا عن المصطبة .. نجية فرحة مبتهجة .. قدمت أكواب الشاى .. مال لطفى على أذن حسان .. ضحك لطفى وهو يستأذن من نجية فى أن يصحب حسان ليدخنا معًا كرسى معسل .. عرفت نجية أن «لطفى» سيقدم تحيته إلى صديقه لا أقل من نصف قرش حشيش غير قمحات الأفيون ، نبهت نجية على حسان أن يعود سريعًا .. هى تخاف الوحدة .. أخرجت نجية حلة

المكرونة فوقها ذَكَر البط استعداداً لتسخينها فور عودة حسان ..
أخرجت ورقة التفتة الحمراء ، دعكت بها خديها .. المرود دسته داخل
زجاجة الكحل .. أطبقت جفنيها .. سحبت المرود مارا بالرموش ..
أدمعت عيناها . تطلعت إلى قطعة المرآة . دخلت مناخيرها رائحة زبل
الأرانب من الحجر تحت المصطبة .. قررت أن تتخلص من الخروف
الصغير المربوط فى البحراية بأن تنقله مع بهائم جابر أفندى .. سمعت
طرقًا على الباب .. انتفضت مسروعة تلهث .. حسان لم يكن قد عاد
بعد .. وقفت أمام الباب .. الحارة فيها سكون .. دور الفلاحين مغلقة ..
خافت على حسان من كلب أسود عضاض ينام دائمًا فى أول الحارة ..
الجاز فى اللمبة الزجاجية قد انتصف .. همت أن تقف أمام الباب
لتعرب لحسان عن زعلها لتأخره ، وكذلك عن إعزازها أى حبها ..
اكتشفت فجأة أنها وحسان غريبان .. أنهما معًا قطعا من شجرة ..
لامت لطفى أن حجز حسان كل هذه المدة الطويلة .. ألا يعرف لطفى أن
حسان قد تزوج وأنه أصبح زوجًا وأن له امرأة وأن ليس من حقه أن
يتصرف فى وقته على وهواه .. همت أن تخطف نفسها إلى دار لطفى ..
ليس عيبًا لو فعلت ، فحسان زوجها ومن حقها أن تسأل عليه ، وأن
تقلق لغيابه ، بل وأن تحاسبه .. نباح كلاب داخل العزبة فوق الأسطح
وفى الحارات وحول العزبة .. حمار ينهق بعيداً فى طرف العزبة
الثانى .. عم الشحات أخذته سنة من النوم .. عم الشحات لا يفرق بين
السِّنَة من النوم وبين الغطيط .. المعطف أو البالطو أو السكو يؤدى

واجبه التاريخى حول جسم عم الشحات .. يعترض القادمين ويطلب سيجارة من المعارف .. الحاجة فطوم تتقلب على جنبها الأيمن ، جابر أفندى خارج الدار .. هو فى قعدة يفك عن نفسه .. جابر أفندى نفسه انتهى من تدخين المعسل مع الحشيش فى طريق عودته عرج على المسجد بين أن يصلى أو يقضى ضرورة .. على ميضة الجامع جلس يتقيأ ديكًا وصحن فتة من داخل كرشه .. نجية زاد ميلها إلى أن تنده حسان من منزل لطفى .. تذرعت بالصبر .. بالحكمة التى توصى الإنسان بطول البال .. جلست على المصطبة تستمع ، بصبر فارغ ، إلى كلاب تنبح و إلى أقدام تدق على أرض الحارة .

حسان خرج من عند لطفى بعد أن حرقا معًا لا أقل من عشرين كرسى معسل فى وسطه تعميرات الحشيش .. لطفى دس فى يده قمحة أفيون لزوم الليلة .. على باب الدار حضن حسان صديقه لطفى وقبَّله .. حسان اتخذ طريقه مصممًا دون أن يعرف أو يدرى لم .. بعيدًا .. بعيدًا عن عزبة جابر أفندى ..

* * *

عين الحياة .. نظيرة

عـين الحيـاة ... نظيرة :

التراب الأحمر الذى لم يعد أحمر الأغبش الضبابى لونًا اللاسع مذاقًا .. تشده من داخل الكانون ، مستعينة بفرع شجيرة خلة بيضاء ناشفة ، أصابع مكدودة مرهقة .. جافة الجلد متشققة إيذانًا بالتكرمش ، تهدل الجلد على العظم ، بروز العروق الزرقاء السوداء فى خضرة كابية ، ملساء نافرة واهنة فى ظاهر اليد ، ثم الاستقامة إلى الأبد .. مرة أخيرة وعظمى ، ذات لحظة قابلة ، لا شك فيها وتكف هذه الأنامل عن اللعب فى الطين ، عن لَمِّ الجِلَّة .. عن دفس بذور القطن والذرة والقمح فى بطن أرض الناس ، وتعهدها نبتة تطل من الأرض بورقتين ثم شجيرات مستوية العود ، وتسلم الثمرة – دائمًا – لصاحب الأرض دون اعتراض ، اللهم حكمتك .

صهد النار يهب من بين جدارى الكانون ، يلفح ساقيها ، يملأ ما تحت ذيل الجلابية الشيت التى كانت منقطة بالورد الأحمر ذات يوم ، الصهد يجتاح المناطق العليا ، قبة سيدى ذى النون صاحب الكرامات ، العائش أبدًا فى أدمغة صبيان ورجال قريتنا ، لا استثناء للبنات والنسوان ، يتأمله الأطفال كالطلسم ، يدور حول مقامه المهيب الشريف الصبية والبنات ، يضيئون له الشموع ، ليلة الدخلة يدقون له الأكف

والدفوف ، يقرأون له الفاتحة ، يرسمون له علامة الصليب من بعيد متحسرين ؛ إذ يتقدم العمر الغارب ويزحف الموت الذى يمسح كل شىء حتى كرامات سيدى ذى النون التى لا تنتهى .

هى ليست كالفلاحين ، بالتحديد ليست كنسوة الفلاحين حطبهم مشون على السطح ، ما على الواحدة منهن إلا أن تزعق صغيرتها أو تطلع بنفسها السلالم وترمى بحزمة حطب القطن أو قش الذرة أمام الفرن للخبيز أو الكانون للطبيخ ، هى قدرها العادل خصها بفروع الصفصاف والسنط والكافور وشجيرات الخلة الناشفة ، شجيرات زرعها الشيطان نفسه على حواف المساقى وحدود غيطان الفلاحين وجسور الترع ، خضراء ، فتلية الأوراق ، بيضاء الزهرة ، كقطع الجبن القريش التى يأكلها أولاد الفلاحين ببلاش ، هى تشترى – فى أيام الرخاء الوافر – الحتتين بتعريفة ، بأصابعها هذه بنت الكانون الذى تقتعد الأرض أمامه ، تلقمه وقوده ، جمعته بنفسها من الغيطان عقدته بحبل ، قعدت على قزحها ، عافرت حتى رفعت الشيلة ضغطًا من على الأرض حتى استقرت فوق يافوخها ، سندت الشيلة بيدها اليمنى ، باليسرى ضغت على ركبتها .. شدت جسدها كله ... كأنها ستلد .. كأنها ستقذف من جوفها بأرطال لحم إذ وقفت منتصبة على حيلها والشيلة فوق رأسها كانت حبات عرق متناثرة على جبينها .. كانت حبات عرق تجمعت منسالة على قناة ظهرها ، كان وجهها ، متفصداً باللون الأحمر الغامق ، فى أذنيها صفير .. على أنها لم تحس طويلا بالدوخة التى ألمت بها ، على جدارى الكانون تستقر حله ، عمود من الدخان

الأزرق الأبيض المتموج ينبجس من نار الكانون ، يشمل وجهها ، مع الصهد ، يصطبغ الوجه باللون الأحمر المختنق بالدخان يقتحم عينيها ، ينحدر من ماقيها خطان من دموع ، دموع لا تشى بفرح ، لا تنبئ بسخط .. فى قابل العمر وهى تواجه واحداً من هذه الكوانين ، سيهتك الدخان غشاء الأنف وتختلط الدموع بالسائل الأنفى .. ستمد الأصابع العجفاء تجفف بالوهن منخاريها وتمسحها فى الجلباب الأسود الباهت بلا أطياف ورد ، تشربت فتلاته عرقًا وترابًا وطينًا وبعض الوحل .. زحافات الدخان تتوزع بين هواء سطوح القرية الحر الطليق .. وهواء الحارات الضيقة الثعبانية .. تلتقط الأنوف نثارات عمود الدخان بما يحمل من رائحة أعواد الخلة المحترقة ، يتحد ، ليس بكلمات منطوقة أو بإشارات مرسومة ، يرتسم فى معنى ، ولا مسافة – عند من لا يدرى – بين صاحبة الكانون وصاحبه .. يقعان – على اختلاف الدرجات وتباعدها – فى منطقة ملعونة ، ليست من الذين يسوون طبيخهم على نار أعواد حطب القطن رائقة اللهب والرائحة صافيتهما أو على نار وابورات الجاز البريموس التى تزن فى البيوت المستوردة فى حجرات الحصرية ومقرئى القرآن وأصحاب دكاكين المعسل والسجائر والصابون والحلاوة الطحينية والعسل الأسود ، سادة قريتنا الصغار .

– قسمتى كده .

لم تمسح الدموع الدخان .. الدفء .. دفء الدموع .. البعيد الهادئ المتجدد بالسيولة الوانية والمتحدر عبر الرموش .. أخفّ من أن

يلسع وأعمق من أن يقف عند ملامسة بشرة الخدين فى نغمشة خدرية محمومة محسوسة منملة ، غامضة تنتسب إلى الانتصار البدائى الذى تسجله المرأة بآخر نفس من محاولات المقاومة الشرسة التى يعقبها غرز أظافرها فى جسد الفريسة مع صلوات الهمهمة المتحشرجة المكبوتة لا تكاد تبين ، ترددها جنبات الكهف الذى كان مظلمًا بهيمًا قبل أن تخدش ظلمته فتلات قطن أو معدن تحترق وتضىء ، ويسد مدخله لوح خشب ويسمى بيتًا ..

– قسمتى كده .

البناء الحجرى الواسع الذى لم لحمها وعظمها وشيدت فى ركن منه كانونها ، لا تعرف متى أقيم ، لا تعرف من بناه ، سراية عيلة الناظر .. الناظر يا أولاد كان يمسمر ودان الفلاحين فى الطبلية ، كان يرمى نسوانهم فى بير مسحور ، العفاريت تملأ السراية ، جدرانها عالية ، الفتحات التى كانت شبابيك تلمع عليها شمس العصارى أزرق وأصفر وأخضر ، مربعات زجاجية فى حجم الجبنة .. دوائر فى حجم فتحات القلل القناوى .. لمعان يريك عيون الفلاحين دهشة واستغفارًا للَّه العظيم الذى يخلق ما لا يعلمون ، الشبابيك عيون مفقوءة فى جسد الحيطان العالية ، تحدق فيها عيون الفلاحين فزعًا من السراية المهجورة .. الصبية الصغيرة تشير والمقطف المتهرئ فوق رأسها ، تلف به حول داير الناحية ، مع صغيرات فى لون الكركم ، يتسابقن إلى درقة الجلة ، ساخنة فور سقوطها من بطون جاموس الفلاحين تلقى على الدرقة بعض

قش السكة ، وبحرص تجمع وتكوم ، تستقر فى المقطف ، فى أدمغة الصغيرات المتنافسات على لم الجلة ، يتناسب حجم البناء مع حجم العفاريت داخل السراية .. الصبية الجريئة وحدها هى التى غامرت ومقطف الجلة يعتلى - رأسها ، وألقت بنظرة سريعة من فجوة شباك ، قذفت بحجر .. فى فهمها رأس عفريت مبطوحة تكبر الصغيرات ، بتغير حشو الفراغ بين أطراف الأصابع وأظافرهن إلى طين أسود بدل الجلة الخضراء ، صرن نسواناً لهن حجرات ضيقة مظلمة رطبة يعرفن ويبول فيها العيال والمعيز ويلد ويفقس فى أحجارها الدجاج والبط ، الواحدة منهن تنسل - فى الليل - إلى سراية عيلة الناظر ، تختلس عدداً من الطوب الأحمر لبناء كانون فرن ، أو لإلقائه فى البحراية ينفع عند اللزوم ، فى قلب الصغيرة خوف مستقر عائم قديم ، السراية البناء الخرافى المتحول المنسرب الحلمى ، يقف عاليًا وحده ، تنشأ حوله وتتعدد دور الفلاحين ، كالنعش القديم الهائل الحجم الذى كف أهل القرية عن فرشه بلحاف مستعار من دار مستورة ، النعش يقف ، وحده متساندًا بين المقابر ، يمثل فى فهم أهل القرية وكلماتهم إيماء ، مجرد مصمصة مسموعة إذا جاء ذكر سراية عيلة الناظر ، وقد تنعقد كلمة ، كل ما تراه العين زوال ، على أن هذا البناء النعشى قد تحول فى دماغ نظيرة ، وقد انتهى أمرها ، مقدر من يوم الأزل إلى أن تسكنه إلى عفريت مشجوج الرأس تتساقط منه دائمًا قطرات .. دم أحمر ..

بالدمع المتحدر نفخت الكانون تحت الحلة ، تزرع الدخان المتراكم ، تلتهب أعواد الخلة وفروع الصفصاف ، يسقط على وجهها ضوء أحمر ،

يبرز قسماته ، بالقماشة القديمة المتسخة ، بعد أن سترت العورة سنين لا تحسب ، بعد أن ترقعت فى كل موضع ، المركونة ، بعد العمر الطويل فى الخدمة ، إلى جانب الكانون ، أمسكت غطاء الحلة النحاس ، رفعت الغطاء ، اندفعت هوجة البخار الساخن ، الماء ينز غليانًا ، فى المصرف النظامى الذى ترقد القرية فى ظله ، محصورة بينه وبين سراية عيلة الناظر وقضبان السكة الحديد الفرنساوى ، فى عز الشتاء ، فى أيام برد العجوزة ، الدنيا ساقعة كالرصاص .. مياه المصرف تجمد الدم فى عروق البنى آدم ، هى والمياه تغطيها حتى الحزام ، منحنية تنقل قدميها بحساب ، بطن القدم يضغط وجه طين المصرف ، الطين يبظ من بين أصابع القدمين ، تمد يديها ، تتحسس بهما طين شط المصرف ، تبحث عن منامة من منامات السمك ، حفرة فتحتها ضيقة تعشش داخلها بلطية .. بلطيتان أو ثلاث ، على أن الأنامل العشر المتكرمشة الجلد ، تمسح وجه الطين ليس بحذر .. بتنبؤ ، تتشمم رائحة السمكة قبل أن تلمسها ، الأنامل العشر المتجمدة المتباعدة لتغطى أكبر مساحة من مياه المصرف النظامى ، متهيئة فى ومضة أقصر من ارتداد الطرف إلى أن تتجمع وتلتقى اليدان فى شبكة حديدية لا تخترق ، بينهما سمكة كانت توا آمنة تسبح خلية البال بحثًا عن ورقة عود نسيل ، وهى تصطاد السمك اكتشفت نافورة تقلب المياه الصافية من باطن الأرض – يومها صرخت تجمعت النسوان والبنات اللاتى اندهشن ، فالمصرف فى أوقات امتلائه يبتلع ماء النافورة .. ضحكن .. تشاتمن .. تحاسدن على الصيد ..

أطلقن اسمها فى عين الماء قبل أن يعاودن فرد أصابعهن فى لعبة البخت ، وسط مياه - لولا برد الشتاء - لكانت أسنة . لكنها تسحب القلة الفخار القديمة ، مكسورة الرقبة ، سوداء بطبعة قبضة يد ، نزعت سدادتها ، خرقة قديمة ، صبت فى كفها الأيسر ، حفنة ملح رشيدى خشن ، ملح لم تشتره بالردة الخشنة أو بأكواز الذرة أو بأرغفة العيش كما تفعل نسوان الفلاحين ، مدت يدها بالتعريفة الأبيض المثقوب والذى يحمل نقشًا تعرف بفطرتها أنه كتابة ، لكنها ، لا تعرف من هو السلطان حسين كامل الذى تحمل اسمه بين أصابعها ، على أن الكتابة - عندها - كالحجاب .. حضوره يغنى عن فك أسراره .

هات يا واد يا حسن بقرش ملح ، بس اتوصى ، أحسن والنبى أرميه على العربية وامشى .

ويبتسم الواد حسن ، بائع الملح الجوال ، وتلمع سنة ذهبية تراها زبوناته من النسوان والبنات ، فى قرى الجهة وعزبها وكفورها ، لا تعرف واحدة منهن ، من أين يأتى ، لا يعرفن سوى الواد حسن بتاع الملح ، بوجهه الأسمر ، بطاقيته الصوف الحمراء التى يشبكها على جنب رأسه ، تغطيها قصة شعر سوداء متفحم ، بصدره المكشوف ، بصوته ، الملح الرشيدى الملح ، تعرف النسوان والبنات أنهن معشوقات حسن ، يعرفهن واحدة واحدة ، يوقف عربته على رأس الحارة ، يملأ حفانه ، فولا مدشوشًا ، يدسه فى مخلة التبن والردة .. معلقة فى رأس البغل ، يدخل بوز البغل فى المخلة ، يربت على كفله ، يطلق صيحته ، الملح

الرشيدى الملح ، عيناه ترصد أبواب البيوت ، يترقب زبوناته ، يعرفهن بالاسم ، يحدثهن فى بشاشة ومودة وخلو بال ، لكن هناك فى عزبة ملعونة مهجورة فى آخر الخط على شمال السما ، حظا أسود ، ساق عربته إليها فى يوم شؤم ، لا يشترى كل أهلها قدحين من الملح .. هناك ، تتوقف عينا حسن على باب دار بلا سقف ، يطلق صيحته الملح الرشيدى الملح ، يدق قلبه حتى كأنه سيتوقف .. جسده كله مهيأ للشلل حتى تخرج نجفة بقدميها الحافيتين ، بنهديها ، كقبضتى اليد ، بعينيها السوداوين ولا شىء ..

- أنا اقدر تمشى يا نظيرة .. ياست الكل ..

.. يضيف بعد أن يأخذ التعريفة يضعه بين شوالين مفروشين على العربة ، حفنة ملح ، يتبادلان ابتسامة صافية تمامًا ، وقبل أن ينصرف وإذا ما كان الجو خاليًا يثرثر ..

- معلهش ، حظى زى بهيمتى ، ما علينا ، ازى سى توفيق ، الأيام دى ..

هنا تتسع الابتسامة المشتركة ، تخبطه نظيرة على صدره ..

- لم لسانك يا واد يا حسن أحسن لك ..

ثم وهى تطرد نفسها منسحبة من جواره .

- سى توفيق سيدك ، وسيد الرجالة كلها ..

يتأملها حسن ، كعبها المدعوك بالحجر الخرفيش .. بزى قدميها المتلئتين ، شعر الضفيرتين يتنطط بالتبادل مع كل خطوة ، تنطفئ البسمة على شفتيه ، تختفى السِّنَّة الذهبية ، يخبط البغل بهيمته ، رفيق طريقه ، على كفله بود وعتاب وشكوى ، يتمتم .. يا ميت ندامة على اللى حب ولا طلش .. دماغه ، جسده كله .. شى يا حصان .. الملح الرشيدى الملح .. يا خسارتك ياابو على .. توفيق سيدك .. يا ميت ندامة على اللى حب ولا طلش ..

فى عين العدو ، ألقت حفنة الملح ، لمحت الملح للحظة مستقرا فى قاع الحلة ، سحبت منخلا متسخ الإطار ، صدئ الأسلاك ، قلبت ورقات الرجلة المخروطة ، خضراء معتمة ، حمراء بنفسجية ، إسفنجية ، متورمة بسائل أبيض شفاف مخاطى ، وسارعت بأحكام غطاء الحلة ، لم تقصد أن تكتم نفس الطبخة ، تنهدت بارتياح قدرى قديم ، انحنت بنصفها العلوى ، مدت رقبتها ، نفخت الكانون ، بعود صفصاف ناشف لا تذكر من أين حملته على رأسها إلى البيت ، وسحبت بعض التراب الأحمر من داخل الكانون ، طست لفة صغيرة من أعواد الخلة .. أمامها فسحة من الوقت .. تفصص التوم .. تحمره فى الزيت .. تطش به حلة الرجلة ..

.. خطت داخل حجرة المعاش ، البلاص يقتعد ركنًا من أركان الحجرة ، يسد فمه حزمة حبأ بحر ، مكفى عليها كوز صفيح .. علبة سردين قديمة ، لم ترفع كوز الصفيح ولم تنزع سدادة البلاص ،

لم تـفرغ لنفسها شـربة مـاء بعـد أن تسند البلاص على ركبتـها ، لم تستطع أن تحدد – ما إذا – كانت مرتوية أو عطشى ، لم تشعر بالدافع القوى لأن تشرب ، هذا لا يعنى أنها ليست عطشى ، يعنى بالتحديد أنها ليست كفرانة من العطش ، أى مرتـوية .. فى بئونة الحجر ، والشمس قد حـرقت كل مـا تحـتـها ، وهى فى واحد من غيطان الفلاحين تجمع لوزات القطن ، بأصـابعـها العـشـر تبـدل ، الكف التى يملؤها القطن المجموع تدسها فى عبها ، فى نأحة القيالة ، قد تكون جوعى كذلك ، لكن ذلك لا يمنعها من أن تخطف رجلها إلى أقرب قناة بحثًا عن نُقْرة فيها بلاصين من الماء .. لا يمنعها أن تكون حرارة الشمس قد أوصلت الماء إلى قرب درجة الغليان .. لا يمنعها أن يكون نبات الريم الأخضر يبقع وجه نقرة الماء .. لا يمنعها أن تكون الطحالب الصغيرة تشرد كالسهام الطائشة على وجه نقرة الماء ، لا شىء يمنعها عن أن تفرشح على حافتى القانة الصغيرة ، تميل بنصفها العلوى ، ترصد فمها وسط أعلى النقرة ، تصنع من أصـابعـها الخنصـر والبنصر والوسطى والسبابة مـجرافًا صغيرًا .. المجراف قارب مرجيحة صغير ، تقذف الماء إلى أعلى قدر ارتفاع الركبة مرتين ، تلتقط شفتاها قذيفة الماء ، تطبق شفتيها ، تجبع حفنـة الماء ، وفى قذفات سريعة متتابعة تتناسق فيها حركة الكف ، ترفـع الماء ، وحـركة الشفتين ، تلتـقطـه من أعلى ، ثم تنطبق عليه وتجبـعه .. وقبل أن ينده عليها صاحب الأرض حتى لا يضيع اليوم الذى كراها فيه لجمع القطن لا لمرقعة النسوان التى يعرفها .. عليها أن ترتوى وتجفف

شدقيها وتحمد اللّـه الذى خلق من الماء كل شىء حى .. وأحيانًا لتبرد به جوفها .. عليها أن تسد أذنيها عن الشتائم والاتهامات .

- ... عليها أن - تهمهم .. قطيعة الفلوس على اللى عملوها ، واللّـه فلوسكم ياولاد ستين كلب يا مساعير ما فيها بركة ، ملعونة الأرض ع صحابها ، هتشتروا الشغالة بالقرشين اليومية ، قطيعة تقطع العيشة واللى عايشينها . وعادت فاتخذت جلستها أمام الكانون أسندت زجاجة الزيت إلى الجدار ، مسحت السكينة بطرف جلابيتها التى كانت مشجرة ، لم تلاحظ البَهَتَان فى لون الجلباب ، أمسكت فص التوم المقشر تخرطه بالسكينة ، طاسة التقلية أمامها ، سوداء بطبقات الزيت المحترق والتوم المحترق والبصل المحترق وصدأ النحاس الذى كان أحمر يوم اشتراه المرحوم جدها لأمها قبل زفاف الأم ذات ليلة لم تحضرها نظيرة بنفسها ، و إن ارتسمت فى ذاكرتها كل تفاصيلها ، فالأم و إن اصطنعت الرزانة وهى تحكى لابنتها لم يفت نظيرة مخايل الرضى وراء الكلمات ووراء الوجه الذى كان مليحًا يومًا لا بد ، ما خلا وجه من ملاحه ..

- قسمتى كده ..

لا تقصد شيئًا بذاته ، البلاص ممتلئ لأكثر من منتصفه بالماء الصابح من الترعة والمروق بنقى المشمش ، الطبيخ على الكانون ، غلوة وطش التقلية ، والجائع يأكل أصابعه لا أن يلحس ما عليها من طبيخ

الرجلة ، السكين فى يدها ، تدقق فى تقطيع فصوص التوم ، دون أن تقصد ، دون أن تدرى ، علها مجرد استجابة حسية البناء الواسع الخالى الذى حمل اسم سراية عيلة الناظر ، ما أطلقت عليه هو سوى اسم المخروبة ، للظلام الساحب المتسلل المقبض الذى فاجأ عينيها داخل حجرة المعاش لحظة أن دخلتها ، أو لعلها القطة التى طلعت من تحت الأرض تتمسح فيها بشدة وتحك نفسها فى الجلة أمام الكانون وترفع ذيلها المنفوش الشعر إلى أعلى تدفعها عنها فى قشعريرة جلدية داخلية عميقة ، القطط فى بيوت الفلاحين المعمورة بالعيال والناس قد تكون القرين ، الأخت التى تحت الأرض ، القطط مثل هذه المخروبة على رأسها ورأس الذى بناها عفاريت مؤذية أو لعله لهذا الخوف الذى يكمن داخلها ولا تقدر أن تنعتق جارية هربًا منه ، نهرب من المقدر فين ، المكتوب مكتوب ، اللى انكتب ع الجبين لازم تشوفه العين ، لا تفكر هى أن تفر من أى شىء ، رب هنا رب هناك ، رب العمر كله ، للتهويمات الغامضة الحزينة التى تتلبسها وتستقر داخل دماغها .. تحت الشعر الطويل المضفر الأسود – لولا ما به تراب – مع هبوط الليل فى قريتها ، تخلو الغيطان والسكك والحارات والمصاطب من النور والناس ، الرجال والنسوان والعيال تفرق مجرد استجابة حسية ، قد تكون فى الضلمة الخرس ، أو لعلها مجرد استجابة حسية ، قد يكون أملاها اختناق حركة يدها ، وهى تخرط فصوص التوم إلى قطع صغيرة فى حجم حبة قمح وسارت العدوى إلى إحساسها ، من اختناق جسد إلى اختناق

روح ، أو اختناق لا تدرى مأتاه ، فزامت وأخذت نفسا عميقًا واستغفرت الرب العظيم فى سرها وتأوهت ..

– قسمتى كده ..

لا علاقة بين الكلمة المنطوقة وأى شىء حول أو داخل صاحبتها علها ترددها بتأثير – الوراثة أو العدوى من أمها ، على قزحها تجلس أمام الكانون ، تنفخ النار فى أعواد الخلة وفروع الصفصاف وتغلى الماء وتلقى ورقات الرجلة الإسفنجية المبطرخة بلونها الأخضر الأحمر البنفسجى الرمادى ، تخرط فصا أو فصى توم ، وكانت الأم تلقى نظرة سريعة خبيرة إلى السماء وتحدد الوقت بتدرج كثافة هبوط الظلام ثم بآذان المغرب ثم بآذان العشاء .. وفى الليالى المظلمة برصد نجوم تعرف مواقعها ومواقيتها ظهورًا واختفاء ، وكان يخنقها تخريط الثوم ، ودون أن تدرى ، ودون أن تقصد ، مثل ابنتها ، تتلبسها روح مخنوقة حزينة ، حزن ليس لشىء بذاته أو على شىء بذاته ، ما يهمها حقا هو الستر ، والحالة مستورة والحمد لله ، ياما عينك تقصد عينيها هى ، شافت يابنتى ، أقول لك إيه والا إيه ، قسمة ونصيب ، أو لعل النظرة الوانية حتى لتبدد عمشًا ، أو لعل الانقباض انتقل مع لون الشعر الأسود من جدة بعيدة ، دلقت ذات ليلة من ليالى شهر هاتور ، طشت ماء علي العتبة ولم تذكر اسم آمون أو لم تمجد المسيح أو لم تبسمل فى سرها .

كلمات ممطوطة منغمة ، كلحن قبطى ، يصفره – دون أن يدرى – فلاح يسلى وحدته فى ليل حياض الصعيد ، كلمات لا ينطقها لسان ، كل

خلايا جسد ، صحا من النجمة .. مكسور من وسطه على شجيرات القطن يجمع بيديه الاثنتين اللوزات البيضاء ، كلما امتلأ كف دسه فى الشمرة متدلية أمام فخذيه معلقة من وسط ظهره .. مر بصباح نادٍ مضبب وضحى منذر بشمس حارقة وقيالة يذيل فيها كل الأخضر وعصر تتردد فيه أغنية تبتعث الحيل الفاتر ، لكنه الجسد حى دافئ صاد أبداً .. داخل الجلباب الباهت ضاعت وروده الحمراء فى غيطان الفلاحين الكفرة من طلعة الشمس لغطستها داخل القميص البصلى واللباس دم الغزال والتكة صوف شبكها عاشق قديم ..

ايش معنى يابخت .

من دون البخوت .. بخت أنها لا تعيش لحظة حزن أو لحظة فرح ، تعيش لحظة نقص ، ليس نقص شىء بذاته ، الماء فى البلاص ، الطبيخ فى الحلة ، أرغفة العيش قد لا تملأ المشنة لكن فيها ما يكفى للعشاء وللفطور وقد يتبقى رغيفان ، تلفهما مع فحل بصل فى قطعة قماش من قميص قديم ، تحملها على رأسها ، وعلى رأس خط القطن الذى ستجمعه .. تبحث عن مكان متوار مترب ، تنبش بيدها ، بحرص شديد تضع قطعة القماش بداخلها .. وجبة الغداء ، ثم تهيل التراب ، تساويه بباقى الأرض ، تتفرغ هى .. تعطى صاحب الأرض مقابل أجرتها ، وفى أوان الغداء تخطف رجلها أو تصف لعيل من عيال صاحب الأرض النقطة التى يتوارى فيها أكلها .. نادراً ما يهتدى كلب صاحب الأرض إلى مكان الرغيفين ، ورغم أنه لا يأكل العيش إلا أنه سيفتتها بمخالبه ،

وفى هذه الحالة ، تشتم الكلب وربما صاحبه ، و إذ يجلس أنفار الجمعية فى ظل كيس القطن المنتصب فى القناة لتناول غذائهم ، تفشل كل المحاولات التى يبذلها صاحب الأرض وزوجته والأنفار الشغيلة فى حمل نظيرة على أن تملأ حنكها بلقمتين مع أى منهم ، الأيمان المؤكدة بحياة سيدى ذى النون ترتفع إلى سماء زرقاء صافية تمتد بلا نهاية حتى تلاقى الأرض لا يشوبها غيم واحد ، نظيرة شبعانة ، نظيرة بطنها لا تسع كسرة خبز واحدة ، ليس لها نفس ..

– ياه ، ياما عينكو تقصد عينيها هى ، شافت الحالة مستورة والحمد للّه ..

نقصنها لا يقع عليه بصر ، نقص يتخطى مطالبها الجاهزة ، نقص يستشرف دنيا غامضة ، دنيا بحالها غير التى تحياها ، دنيا ما رأتها وما سمعت عنها ولعلها – إذا سعت إليها ذات يوم – تنكرها ولعلها – دون أن تدرى أو تحس أو تعرف – تواصل بالكلمات .. بعد أمها وجدتها البعيدة ، البحث عنها ..

هو فين يا ناس

سوق البخوت

اشترى لى بخت

وطشت التوم المحمر فى حلة الرجلة ، أعادت إحكام غطاء الحلة ، تهيأت لإنزال الطبخة من فوق الكانون .

– سا الخير يا نظيرة

لم ترد .. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، فى باطنها أن الرجيم صفة ود مشاكس ، ككوز الذرة فى أرض الفلاح يتأمله جائع لم يحسم أمره بعد ، زايلتها لفورها لحظة الوجد النشوان الأسيان البعيد الأغوار ، السؤال الذى لم يتشكل أبداً ، البحث الهائم المطوف دون دراية أو حس أو معرفة عما لا تعرفه بذاته .. عما تطلبه وما لا تطلبه بذاته .. ركبتها ريح لا تدرى مأتاها .. فى وعيها أن المخروبة بحيطانها العالية ، ببقايا السور الذى حولها ، ليست من البلد ، أحست بعزلة المخروبة بدت غير مرتاحة ، اتجهت إلى أن تتخلص من الموقف الطارئ المرهق ، لا لشىء أكثر من ذلك ..

– لا خير ولا يحزنون ..

الولد شحاته ، بهت ..

– إن شا الله ما سرحتى ، لا انت ولا أهلك ، مرة جاموسة ، بنت ستين كلب ، لو كان جوزك راجل كان رباكى ، لكن كروديا .. كلمات الشتيمة جادة صريحة ، لا غمز فيها ولا تحويد ، شتيمة صادقة ، شتيمة مقصود بها الشتيمة لذاتها .. أحست بالخبر ، بقرار المرجيحة ، جو الشتيمة مأمون محدد فى قبضة يدها ، كالغلته فى حقل القمح ..

– ما جاموسة الا امك واخواتك ، خدام ابن خدام ابن ستين كلب ، وما كروديا إلا أنت ، جوزى جزمته برقبتك ورقبة أسيادك اللى بتشتغل عندهم ..

.. ثم ضحكت إلى أن انفرج ما بين شفتيها وبانت أسنانها ، عامل راجل زى الرجالة ، وهزت رأسها ، رجالة آخر زمن ..

– أعوذ بالله .. لسانك متبرى منك ..

... كانت قد انتهت تماماً ، انتظم خفق قلبها ، سحبت نفساً عميقاً ، عقلها الآن فى رأسها ، تملك نفسها ، فى جيب شحاتة ، أجرة يوم لجمع القطن فى غيط عيلة السوالم ، حسبت بسرعة ، لو تقبض أجرة خمسة ستة أيام مقدماً ، تشترى كيلة درة ، ابتسمت وهى تتنهد ..

– انت ياواد يا مـــشطوب الاسم بتطلع من تحت الأرض ، لابس طاقية الاخفا ؟

بدأت تتأمل تفاصيل وجهه ، وقفت عند القصة والطاقية الصوف الحمراء الواقفة على مؤخرة رأسه ، الشارب المبروم ، العصا الخيزران الرفيعة ، دليل الفتوة ..

– عامل راجل زى الرجالة ..

ثم ضحكت .. كانت قد هضمت اللحظة ، ضربته على صدره ..

– شنب وعصابة وعاوج الطاقية ، فاكر الغنيوة ، أنا خدت الواد ، ده غيه ، على عاوجة الطاقية ، داتها وكسه ..

شحاتة لم يفك مسارات التغيير فى حس وفكر المرأة التى يقف أمامها ، بمزيج من حسه وفكره ، جدعنته وفهلوته ، التقط أن شيئًا كان موجوداً ساعة أن باغت نظيرة ، ثم ، طار ، ودون أن يقصد سوى أن يتحدث ، يتحدث ليفكر ..

– بت يا نظيرة ، فين توفيق ..

السؤال برىء ، أو بدا لنظيرة أنه محايد ولا يقصد به إلا ذاته ، كانت قد رحلت عن .. لا خير ولا يحزنون ، لعلها أحست خيبة أمل فى أنها قاومت وهمًا ، أو قاومت ، ولعلها ستنكر ، وستحلف بسيدها ذى النون ، قاومت نفسها ، أقرب إلى حالة الفتور همدانة ، تجرى بذهنها حسبة ثمن كيلة الدرة وممن ستشتريها .. هل سيمهلها يومين أو ثلاثة إذا نقص الثمن بريزة أو خمسة صاغ ، ولاد الفلاحين يستاهلم ناظر الوقف يكسر رقبتهم ، بس احنا يارب اللى نعيش طول عمرنا نشترى كيلة بكيلة ، وما يكملش ثمنها أبداً ، يابختهم اللى مخزنين الذرة فوق سطوحهم ، وسألت ، بذلة وانكسار وشى بهما رنة صوت كلماتها ولحظة التجمد كالدمعة – التى هبت على ملامح وجهها .

– يا واد يا شحاتة ، قوللى ، كيلة الدرة بكام الأيام دى ..

كحلم بعيد لمع فى مخيلته ، رشاد أفندى يركله بطرف حذائه الأحمر الأجلسيه ، أمه تخدم فى بيت عائلة السوالم قبل أن يولد شحاتة نفسه ، اتولد لقاها تخدم فى بيت عيلة السوالم .

– إيه اللى معاكى ده يا بت يا بهانة ؟

– أبدًا يا ستى ، والنبى ، ما خدت حاجة ..

امتدت يد بيضاء بضة تشد فنلة قديمة من لباس بهانة .. يد ثقيلة أوقعت بهانة على بلاط الصالة ، بلاطة بيضاء وبلاطة سوداء ، وقعت أم شحاتة فوق البلاط فى المكان الذى يقع بين حجرة النوم وحجرة السفرة فى بيت عائلة السوالم ، لصة لا يتمر فيها المعروف ، بصقة وقعت على أنفها ، عصا رشاد أفندى تعمل على قفا بهانة ، نطق شحاته ، أمه ليست لصة ، شحاتة فعل ذلك ، بوز الجزمة الحمراء الأجلسيه استقر بين إليتيه فى خبطة شديدة بهتت على أثرها – وبسببها لمعة الحذاء ، الخيزرانة تحولت إلى أكتافه ، لص كأمه ، عوى من لسع الخبطات ، انسحب شحاتة إلى زريبة البهائم ، بهائم رشاد أفندى ، مخلفا أمه وراءه متكورة من بين شفتيها ينسل خيط دم أحمر ، كومة خيش قديم تئن ، تستعطف ، تقسم ، ترفع يديها بالضراعة إلى ست البيت التى تقف منتصبة مغضبة ..

– معلهش ياستى ، المسامح كريم ، طول عمرنا خدامينكم .

شحاتة ينحى بالقهر صورة أمه ، ينحى معها بالحيرة صوت نظيرة ..

– واد يا شحاتة ، كيلة الدرة بكام ؟

كانت قد انطبعت فى حسه صورة نظيرة متحفزة لا يدرى لِمَ ، شرانية ، لا يدرى لِمَ ، مخنوقة ، لا يدرى لِمَ .. ساعة أن دخل عليها ..

– لا خير ولا يحزنون .

.. عاد شحاتة يسأل دون أن يجيب متجاهلا السؤال الذى وجهته نظيرة إليه عن ثمن كيلة الذرة ، بصوت أقرب إلى الهمس ..

– بقول لك ، توفيق فين يا ست ؟

حسبة ثمن كيلة الدرة وممن ستشتريها ، وهل سيمهلها يومًا أو يومين ، لا تزال تدور فى دماغ نظيرة .. وهى تعرف ثمن كيلة الدرة تحديداً ، فى طريقها – كل صباح إلى الغيط ، وفي عودتها – كل مغرب – من الغيط .. وسواء ستشترى أم أن الصفيحة ملآنة بالدقيق .. تسأل عن ثمن كيلة الدرة .. وتكمل فى داخلها .. هل يرضى ابن ستين كلب هذا أن يعطيها مقدمًا ، ثمن كيلة الدرة كاملا على أن توفيها سروحا معه فى أرض عيلة السوالم .

– وحياة سيدنا النبى ، وحياة سيدى ذى النون ، يا شحاتة ، هـ .. اسرح معاك لغاية ما اخلص ثمن كيلة الدرة ، انت عارف إنى جد ، كلمتى واحدة ، أقول .. لك هاسرح معاك لغاية ما عيلة السوالم تخلص جمع ..

– نظيرة ، بللى ريقى .

.. انسلت إلى حجرة المعاش أمسكت كوز الصفيح ، رفعت سدادة البلاص ، حزمة حبأ البحر ، أمالت البلاص ، سندته بركبتها ، ملأت الكوز ، كان شحاتة وراءها ، مدت يدها إليه بالكوز ..

- ابقوا اشربوا فى دوركم .

أمسك شحاتة بكوز الماء ، لم يرفعه إلى فمه ، ردد مبتسمًا جادا حزينًا متوسلا فى همس ..

- بقولك ، يا نظيرة ، بللى ريقى ..

.. أخيراً التقطت نظيرة كلمات شحاتة ، شحاتة يقذف رغيف العجين داخل فرن خمدت - نيرانه ، وما فى جوفه غير الرماد ، ابتسمت .. ضربته على كتفه ..

- يا شيخ احنا فى إيه ولا فى إيه ..

مع إنها تثنت وابتسمت ونعمت الكلام وضربته على كتفه بألفة ، لكنها لم تعد الصوت الأول ، مد يده إليها بالكوز ، وهى تأخذه قبض على معصمها ، أطلقت آهة ألم من خشونة اليد ، المسألة كلها محصورة داخل دماغ نظيرة ، تديرها بحسابات ثمن كيلة الدرة ، ومدى قبول شحاتة أن يعطيها مقدمًا ..

- سيب إيدى يا واد يا شحاتة ياابن بهانة .

... فى عجلة ، أخرج شحاتة - مقاول الأنفار بعيلة السوالم .. أجرة جمعة كاملة ، ووضعها على قالب طوب أحمر منزوع من جدران سراية عيلة الناظر ، فى العتمة رصدت عيناها الفلوس ، تنقل بصرها بين الفلوس على قالب طوب سراية توفيق سليل عيلة الناظر ، وبين وجه شحاتة بالسهوم الذى حط عليه .. الشفقة تأخذها من أجل شحاتة ، قالب الطوب فى استطالة وجه توفيق ، أذناها تلتقط ..

- أجرتك سبعة أيام ، ثمن كيلة الذرة ، ووهبة الطحان ..

... يمد يده ، نظيرة تستعد لنزال بدنى لا تخشاه ، انتهت لحظة الأزل الربيعية ، اللحظة التى أحست فيها نظيرة بعزلتها مع شحاتة ..

لحظتها كان شحاتة مجرد مقاول أنفار لجمع القطن فى غيط عيلة السوالم ...

* * *

دراســـة

عبد المنعم تليمة

عندما يحيا الفنان حياة جماعته ، ويعيش قضيتها ، ويعى التناقضات والعلاقات فى واقعها ، فإن فنه يتخذ موضعه من سياق جهد الجماعة ، ويعود - الفن - إلى طبيعته الحقة بين أوجه النشاط الإنسانى ، باعتباره أداة يدرك البشر بها واقعهم إدراكًا جماليا ، ويسعون - بعد إدراك الواقع - إلى تغييره تغيراً فعليا . فى هذه الحالة ، أولا ، يتحرر (الواقع) - فى عمل الفنان - من الجمود والحرفية و (النثرية) إذ يكتشف الفن التناقضات ، والعلاقات فى هذا الواقع ، أى يكتشف فيه التغير والحركة والتداخل والتفاعل . وهنا يتحرر (الفن) من أن يكون انعكاساً آليا سلبيا لهذا الواقع ، ويصبح انعكاساً لحركة هذا الواقع فى شمولها وتعقدها ونموها وتطورها . إن (حركة) الواقع - تأسيساً على هذه الحقيقة الأولى - تبدو (صورة) نوعية فريدة ، هى صورتها الفنية ، إذ يبدو الواقع فى العمل الفنى أكثر ثراء وغنى من حقيقته (المرئية) ، لأن هذا الواقع لا يبدو فى الفن فى تبدده وجموده ، بل إنه ليبدو

فى جوامع جوهرية وحركة دائبة التطور . وفى هذه الحالة ثانيًا ، يبدأ الفنان من (العيان) لا من (الذهن) ، أى أن الفنان هنا - إذ يحيا حياة ناسه ، ويعى طبيعة العلاقات القائمة بينهم والتناقضات الفاعلة فى واقعهم - لا يحكم الفكر فى الواقع ، ولا يجعل الوعى سورًا يحاصر به الوجود ، وإنما يجعل من ذلك الوعى وسيلة إلى فهم هذا الوجود ، وأداة لتشكيله . إن هذا الوعى يعصم الفنان من أن تكون حياته مع جماعته حياة فناء ومسايرة ، وإنما يجعلها حياة نقد وكشف دائبين . وبهذا فإن هذا الفهم لعلاقة الفنان بواقعه ، يقر للفنان برؤيته وحلمه وموقفه ، كما يقر له بوجدانه الذاتى المتفرد وبحساسيته الخاصة . وفى هذه الحالة ، ثالثًا ، يغنى الجمال بمحتوى اجتماعى ، ويفصح التشكيل الفنى عن دلالة اجتماعية وموقف فكرى ، وهنا تتحقق صورة راقية للجدل فى العمل الفنى ، بين الموقف فكريا واجتماعيا ، والتشكيل بنائيا وجماليا ، وتتوارى - فى الدرس النقدى - معرفة الفنان مع التعرف على وسائله فى التوصيل والنباء والتشكيل .

(١)

هنا - فى هذه المجموعة - موقف وتفتيش صبور عن تشكيل ملائم له ، وتحدد معطيات ذلك الموقف فكريا واجتماعيا الظواهر التعبيرية لهذا التشكيل . إن تناول القصة القصيرة من جهة مفهومها وتقاليدها

الفنية المميزة لها عن غيرها من الأنواع الأدبية ، أمر خاص بالنقد النظرى . أما التعامل مع نصوص بأعيانها فتعامل مع (فن) تتوه فيه التقاليد الفنية الخاصة المميزة للنوع الأدبى ، فى عالم أر حب هو الإدراك الفنى للواقع ، للعالم ، الإدراك الجمالى له . أى أننا بصدد (قراءة) لنصوص قصص قصيرة بأعيانها ، من جهة إدراك القاص لعالمه جماليا ، ومن جهة – ما دام الارتباط حميمًا بالنص – كيفية توصيله لهذا الإدراك . وكما سبق القول فإن إدراك الواقع بكل ما يمور به من تناقض وتضاد وتداخل ، يدعو إلى قبول تعدد زوايا الرؤى وتباين تجارب التشكيل والصياغة ، أى إلى رفض فكرة (النمط) الجاهز فى الفن . يترتب على هذا أنه ليس هناك عيب جمالى على إطلاقه إنما العيب الجمالى يرتبط بطريقة محددة فى صياغة (مضمون) محدد ، أو بمعنى آخر يتوقف التشكيل الجمالى – فى نجاحه أو فشله – على قدرته فى صياغة إدراك جمالى لواقع اجتماعى تاريخى محدد . علينا – إذن – أن نتوفر مخلصين على قراءة الأعمال التى تضمها هذه المجموعة ، متابعين موقف الكاتب وبحثه عن (لغة) فنية لهذا الموقف .

(٢)

كاتب هذه المجموعة يعرف جماعته معرفة طيبة ، يجلس بين صفوفها ، ويتحدث إليها ، ويسع قلبه – بوجد صوفى دافئ – أشواقها وهمومها . لكنه مع ذلك يخرج من الصفوف ، ويبتعد – وقلبه هناك –

ليتيح لفكره أن يعى ما يسود حياة جماعته من تناقضات وعلاقات ، ولخياله أن يلمح وراء الظاهر اللا منطقى جوهراً منطقيا ، ولجهده الفنى أن يصوغ هذا الجوهر فى واقع هذه الجماعة . الكاتب ببساطة - كما سيرى القارئ - يحب جماعته ، لكنه يكره ما هو قائم بينها من علاقات ، ويتجه به حبه لها - فكريا - إلى بناء علاقات جديدة ، أكثر إنسانية ، كما يتجه به حبه لها - جماليا - إلى بناء عمله مستلهمًا لغة وأدوات تشكيل من تراثها .

جماعة الكاتب - فى المجموعة كلها - أهله فى القرية المصرية . وهو بالحنان والتفهم يعيش أحزانهم ، ويعرف أسرارهم وخبايا حياتهم . لكنه - كما سبق القول - يكره العلاقات السائدة بينهم : يكره مأساتهم إنهم يعيشون مأساة ، ومأساتهم - كما يرى الكاتب - أنهم لا يعرفون مأساتهم . وعلى الرغم من سواد هذه المأساة وثقلها فإن القرية تصنع الحياة أبدًا ، ومن هذه القيمة الكبرى - صنع الحياة - تتحدد كل القيم الأخلاقية والسلوكية عند تلك الجماعة . فالخير والشر موقفان يتحددان قربًا وبعداً من تلك القيمة الكبرى . لكن هناك قوى تاريخية واجتماعية تخل بموازين القيم ، فتحفز الأوضاع إلى تغيير الأمور وإعادة بناء علاقات جديدة ، وهنا تتحدد مواقف الأخيار والأشرار فى تلك الجماعة .

والقرية كيان يضم الجماعة البشرية فى علاقاتها (الإنسانية) ويجمعها مع غيرها من الأحياء والأشياء فى وحدة (طبيعية) . الناشر ، والحيوان والزرع ، تحيا (الحياة) وتصنعها ، ويضمها أعمق معانى الحياة : الخصوبة ، تنشق الأرض ، وتضم البذور ، متهيئة لميلاد جديد والأرض الخصبة كالمرأة الخصبة ، تضم فى حب ورحمة جنينها وتلده فى نشوة معطاءة عنصراً من عناصر بناء الحياة وصنعها . لكن الجماعة فى القرية – من حيث العلاقات الاجتماعية – تحيا فى وحدة وهمية مزيفة ، تضم القاهرين والمقهورين ، ويبلغ زيف هذه الوحدة غايته عندما يضم الليل القرية كلها فى إهاب أسود تبوح قتامته بمعنى المأساة : ليل القرية (رحم) يضم البشر ، والأرض ، والزرع ، والحيوان ، كما يضم الأحزان والخبايا والأرواح .

يرفع الظلام الفاصل بين البلد والحقول فتبدو الجهة كلها قطعة بلا نهاية من السواد . الدور ذاتها تنام ، والكلاب فوقها وفى الحارات تتناوب النباح وتترصد الغرباء والذئاب . عزرائيل يهبط ويقبض الأرواح، وتنطلق العفاريت من عقالها تحت الأرض . والليل رحم يضم الأسرار : « ... بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة أمام دكان الشيخ سعيد قعدة أولاد الحارة ، يتخاطفون سيجارة ، يرصون كرسى معسل ، يتراهنون على كسر أعواد القصب بسيف كف اليد ، يتراهنون على أكل

قطع الصابون وشرب الجاز ، وسبب آخر خفى ، التعليق على نسوان الحارة عندما تمر عليهم فى الظلام . بعد الطبخ والأكل وتنويم العيال تتنادى جارات الحارة وكل جماعة قافلة صغيرة تأخذ طريقها مارة بمصطبة دكان الشيخ إلى التلول ، تفك تكة السروال ، والجلسات متقاربة . الأسرار – هى الأخرى – حمل ثقيل احتجزنها يومًا بكامله . التخفف حالتهن . تنتهى الجماعات بعد أن يتخففن . عند العودة ليس شرطًا أن تكون كل جماعة هى بذاتها التى خرجت . يعاد تشكيل الجماعات . التلول حول البلد ملك للحريم فى الليل ... تصافح المصلون . انتهت صلاة العشاء . عيال الحارة وأولادها على مصطبة الشيخ سعيد . نسوان الحارة فى طريقهن إلى التلول . بعد الذى منه ، يدققن فى اختيار الطوبة للمسح ، الخشية من أن تكون الطوبة إفرازًا آدميا جافا . الأولاد على المصطبة لا يكفون عن التعليق على مواكب النسوة . حج مبرور . كل سنة وأنتم طيبين . لا يمنع أن تكون أم الولد بين الجماعة . يصفعه ولد آخر على قفاه . يابن الكلب وسر المصحف الشريف أمك كانت فى الوسط » (الليل الرحم) .

لكن فعل قوانين القهر يفضح الوحدة الوهمية المزيفة التى تبدو عليها هذه الجماعة . القلة المالكة القاهرة لها أخلاقياتها يمثل ما لها من مصالح . هذه القلة تتمسك فى الظاهر بقيم تحمى بها استغلالها ، بينما

هى أولى من يخون هذه القيم . تدارى عريها الأخلاقى بشعارات ، وتفعل كل شىء فى تكتم . تجد حليفها فى (الأجنبى) ، فتتعاون معه على استغلال ثمرة كد المقهورين : (النشيد من الأفق الغربى) . بل إن هذه القلة - بمعنى من المعانى - (أجنبية ، دخيلة على الجماعة ، ووجودها (حرام) وشر من جهة قيمة القيم فى تلك الجماعة : صنع الحياة .. حلال والا حرام ياعم الوهيدى .. لا تؤخذانى ، أنت راجل كوالدى . يعنى عيلة السوالم لا مؤاخذة كانت الأرض أرض أبوهم . أنا سمعت وأنت أدرى أنهم ناس أغراب عن البلد . كل أهالى البلد شغالين عندهم . جابر أفندى أبو سالم ياما ضربنى بالشلوت وأنا بعزق فى أرضه بالفاس . بعد كده على الحرام ياعم الوهيدى بنفسه كان يقوم يولع لى السيجارة . ياعم الوهيدى إن عشت نعجة تاكلك الديابة . ياما اشتغلت فى أراضى أولاد الكلب .. عم الوهيدى لا يعترض . لكن الحلال والحرام بينهما التفرقة جلية كالخيط الأبيض والخيط الأسود . اسمع ياعم الوهيدى أنا بلا زوجة ، لكن على الطلاق أرض أولاد الكلب حرام ، اسمع ، اسمع يا راجل يا عجوز .. رد على .. أرض السوالم تعبوا فيها عرقوا فيها ، كل أهالى البلد نسوان ورجال وعيال ، شغالة عندهم ، حلال أم حرام » (الليل الرحم) . وتبدو الجماعة وقت الشدة معسكرين متمايزين تماماً . وتزول القشرة عن تلك الوحدة الوهمية المزيفة :

« ... ببطء تدريجى ثابت . تسلل الخوف ... ملأ البلد كلها . خلت

المصاطب ، قعدات المعسل ، حتى المساجد . تجمعات مختلفة مرعوبة تتهامس ، تتناقل آخر أنباء المرض ، أى الموت . من أصيب بصداع فيه الشك والأمل . الإسهال يقطع الشك باليقين . البحث عن الليمون شغل الناس . المرض الجديد معد يا أولاد . ثلاثة أيام ثم الموت . لا مريض واحد يشفى ، البلد تدفن كل يوم . كل يوم موت ودفن وجنازات صامتة . الدفن لا يتوقف . فى كل بيت مريض أو ميت أو مرعوب . قش الرز ملأ الشوارع والمصاطب . على قش الأرز يجلس المشيعون ... سوق الاثنين ما عاد يقام . كل واحد انطوى على خوف عميق . خوف يخاف أن يهمس به لنفسه . لا أحد أبدًا هاجمه المرض وشفى . البلد انقسمت قسمة غريبة كما لم يحدث أبدًا أو كما هو حادث دائمًا . عيلة السوالم أقامت معسكرًا وقائيا حول سراياتهم ومنازلهم . احتمت داخل معسكرها . فكروا أن يقيموا سورًا بين بيوتهم وباقى بيوت الفلاحين ، أى غريب عن العائلة محظور عليه الاقتراب من بيوتهم . أهالى البلد عليهم وحدهم ينصب غضب اللّه . العائلة الغريبة الوافدة على البلد بيوتها منعزلة . الشغالة الذين يخدمونهم فى الغيط والبيت حجزوهم داخل المعسكر . منعوهم من النزول إلى ذويهم . المسجد المشترك قاطعوه . جابر أفندى احتجز السبخاوى وكلبه سبع الليل . مقابر البلد مفتوحة للأهالى وحدهم . المقابر ضاقت بالموتى من أهل البلد .. »
(الليل الرحم) .

أما الكثرة المقهورة فتستمد قيمها من صنعها للحياة و إنتاجها الدائب لها . من قيمها الأولى أن يكون للفرد منها أرض يزرعها وجاموسة وبقرة وعلى سطح بيته كوم الذرة . من هذه القيمة ينبع الخير ويتحدد الشر وتعرف الطيبة كما يعرف الخبث . الفرد فى هذه الكثرة « .. طيب . راجل غيط ، يحب أباه ، يخلق الشغل فى الغيط من تحت الأرض ، قبل الفجر ديله فى اسنانه إلى الغيط ، راكب حمار ، ساحب بقرة ، الفأس فى يده كالسيجارة ... يحب طين الأرض أكثر من حبه لحريمه . ومرة كان يتغدى وانسل عود برسيم مع اللقمة ، لم يرمه ، ضحك ، ياواد يافتح اللّه كله خلقة ربنا ، البنى آدمين والبهايم والسريس والبرسيم .. » (الليل الرحم) . والفرد فى هذه الكثرة مسالم ، لا يقوى أن يواجه التودد الإنسانى بالجمود أو باللامبالاة ، أو بالحذر (كل شيء حقيقة) . والفرد فى هذه الكثرة (مغترب) عن نفسه ، وعن نتاج عمله ، وقد يصل به الاغتراب إلى حد أن يكون بلا أصل ، وبلا فصل ، وبلا (تاريخ) « ... نجية بلا أصل ، وبلا فصل ، وبلا حكاية . شبت فى دار جابر أفندى .. أمها كانت قبلها خادمة فى دار جابر أفندى ... لم تر لها أبًا ... ولولا أن اسمه منقوش على ختمها ما عرفت اسمه ... لم تحدثها المرحومة أمها عن أبيها ... المعلومة الوحيدة الأكيدة أن أباها لم يكن من رجال هذه العزبة ... أمها نفسها واللّه وحده هو العالم ، لم تكن من نساء العزبة ... الناس فى العزبة لا ينسبونها إلى اسم أبيها أو حتى إلى اسم أمها ... نجيه التى تخدم فى منزل جابر

أفندى ... نجيه زوجة صالح الذى يخدم جابر أفندى ... « (كل شيء حقيقة) ، هذه الكثرة معسكر إزاء معسكر قاهريها وفى كل أمر من أمور الحياة يتمايز المعسكران ، حتى فى الصلاة يقف المقهورون فى الصفوف الخلفية ، فجلا ليبهم البالية المتسخة لا تسمح لهم بحشر أنفسهم بين وجهاء القرية فى الصفوف الأولى التى تلى الإمام مباشرة (فرح سلامة) . لكن المأساة فى أن معسكر الكثرة لا يعى القوانين القاهرة له ، لا يعرف مأساته . حكمة ربنا ، لا تعترض على حكمة ربنا (الليلة الجاية) . القسمة والنصيب رب هذا المعسكر ، ومع ذلك فإن لقمة العيش لا تملكه (كل شيء حقيقة) . من هنا يأتى الصراع .

القرية تتململ تحت ثقل القهر . ليس البشر وحدهم يتململون ، بل إن الزرع والحيوان ، يستشعران المأساة ، وقد يتمردان . غيط الوسية يسوده صمت جنائزى متوتر (النشيد من الأفق الغربى) . والجاموسة تجتر بلا أحلام (كل شيء حقيقة) . والبقر ينزع إلى التمرد « ... كف عم الوهيدى اليسرى تمسك بيد المحراث خشية أن يسيخ أعمق من العمق الذى يريده لإنبات الذرة . يمناه تضم أحبالا طويلة تنتهى إلى آذان بقرتين سوداوين يخلص نسبهما بحكم المجاورة فى الزمان والمكان ، إلى نسب عم الوهيدى . بالأحبال الموصولة يعيد الرجل البقرتين أو إحداهما إلى الخط إذا ما عن لأيهما أن تنحرف عنه . على الكتف اليمنى ، تستقر قلقة فرقلة تلسع عند اللزوم ، الجلد الأسود

الغطيس ، وهنا يبذل العجوز مجهوداً منتبهًا : ليحفظ توازن العمق والاستقامة للمحراث أو ليشرخ ظهر الحيوان بالسوط ، وقبل أن يفلت منه واحد من خيوط العملية يرتفع صوته مخاطبًا واحدة من البقرتين بشدة ودودة من أذنها :

- لا ... ارجعى .

وترجع البقرة بعد أن تنفض رأسها نفضتين : علهما تململ أو مشروع تمرد مضى عليه ستة آلاف سنة ولم يتحقق ، على أنهما لا تخلوان من عتاب دينى صامت مستسلم قدرى حزين ... » (الليل الرحم) .
لكن الصراع بين الناس والناس هو الأساس هنا ، إذا تركنا الجانب الميتافيزيقى الذى يوحد بين الإنسان وسائر الأحياء . الصراع بين القاهرين والمقهورين غير مرئى ، وغير متعمد ، لكن له قوانينه . كما أن لهذا الصراع بين المعسكرين أشكاله . فإذا لم يقم على الوعى بقوانين القهر كان تمرداً ، ولم يكن ثورة . ومن بين صفوف معسكر الكثرة المقهورة فى القرية يخرج المتمردون . وقد يخون هذا الخروج قيم معسكر الكثرة ، فيهدف إلى تحقيق أهداف أنانيه شريره . لكن معظم هذا الخروج لمواجهة الظلم . والخارجون أبناء ليل ، لا بيوت لهم ، ولا يملكون أنفسهم . يخرج الواحد منهم فلا يعرف متى يعود ، وقد لا يعود أبداً .
وابن الليل رجل ، لكن خروجه - بلا وعى بقوانين القهر يؤدى به إلى تدعيم ما خرج تمرداً عليه . لذلك يعيش المتمردون حياة قدرية غامضة

« ... فى القاعات المغلقة . الرجال والنسوان والعيال فى سابع نومه . على المصاطب المسطوحة ، على قباب الأفران ، على الحصير ، على قش الأرز ، المهم أن عيونهم أغلقها النوم ، واستسلمت أجسامهم للراحة . خارج الدور لا حياة لغير القطط والكلاب والعفاريت والذين تعكرت دماؤهم ولم يصاحبوا الفراخ فى استسلامها للنوم مع غطسة الشمس ... من خلف جسر المصرف انحدرت عصبة من الرجال . بندقية ميزر معلقة فى كتف كل منهم . الجلاليب مقروطة عند الركب . ينسلون لا تحس بهم النسمة نفسها . اعترضهم كلب عم السبخاوى . تسلقوا السطح . سعل واحد منهم انتظاراً أن ينادى عم السبخاوى . البر أمان . أعطى الرجل الإشارة . هبط الآخرون . كوز الشاى على قوالح الذرة المشتعلة فى الطاجن . جوزة نحاسية صفراء سحبت . مع المعسل تحترق تعامير الحشيش . بدأ التحفظ على أولاد الليل . المطاردة - رغم كل أمان - دقات قلبهم . عم السبخاوى . خفير الحكومة القديم لم يفته قلق ضيوفه . قدم لهم الغريب . فتح اللّه ابن عم الوهيدى . فتحوا سيرة السيد أبو دراع. حزن بين أن يكون عميقًا أو مألوفًا يرتسم على أوجه الرجال . إيمانهم أن القتل قدرهم . تطاردهم عقيدة أن من قتل يقتل . فى انتظارهم الطويل للخاتمة يقتلون إذ يقع واحد منهم . الحزن ليس من أجله وحده . العقيدة اللعينة تطاردهم . وتتحقق . عم السبخاوى - هامش

من هوامش رجال الليل لا يحس عمق كربهم . شد واحد منهم نفساً من الجوزة . طرد الدخان من منخاريه كالبندقية أم روحين . وجه السؤال إلى فتح اللّه .. من قتل أبو دراع . فتح اللّه مأخوذ . بدا له جلساؤه من الرجال صورة خرافية لأبى زيد الهلالى سلامة ، الزير سالم . الصور البشرية تملأ ملامحهم . لكنهم أولاد ليل ، لا ينامون فى المغرب مع الفراخ . خال رؤوسهم مخلوقة واقفة لا تعرف الانحناء لأحد . يستيقظون مع حلول الظلام . فى الليل الدنيا- لا الأرض - ملكهم ... » (الليل الرحم). وقد تتحول الجماعة المقهورة بكاملها إلى الخروج المتمرد ، إلى أن يكون كل أفرادها أولاد ليل (الليلة الجاية) ، لكن التمرد ، لا ينفى الاستغلال الذى تفعل قوانينه فى هذه الجماعة . بل إن بعض المقهورين - إذ لا يعى قوانين القهر - يقتل بعضهم : وهذه حكاية السيد أبو دراع ، نموذج لمأساة البطل المتمرد ، الخارج - مواجهة للظلم - خروجًا فرديا . تبين ظلم القلة القاهرة ، لكن وعيه لم يصل - إلى معرفة قوانين الاستغلال . لم يعجبه حال عائلة السوالم مع أهالى البلد ، فكره هذه العائلة الظالمة كرهاً شديداً حمله إلى الليل . وتاب أبو دراع ، ابن الليل ، عن كل ما يلحق ضرراً أو شرا بجماعته المقهورة ، لكنه ظل يكره عائلة السوالم . إنما جاء مصرعه من بين جماعته « ... الخط الثانى شقه عم الوهيدى فى ساحل السيد أبو دراع .

حامد لمح السيد أبو دراع مقبلاً جرياً قاصداً عم الوهيدى .

– حوش ياعم عبده .

قبل أن يصل السيد أبو دراع إلى عم الوهيدى ، كان سوط الفرقلة قد لف حول رقبته ، وقبل أن يقذف السيد أبو دراع السكينة الطويلة أم حدين والتى يربطها دائماً على اللحم لصق فخذه ، كان عبد الشاطر قد أحاطه بذراعيه من الخلف . كانت فأس قد هوت على رأسه ، وانبثقت نافورة دقيقة من دم أحمر . التفت عيون فتح اللّه وحامد مذهولين كل يسأل الآخر مرتعباً .

فك عبد الشاطر ذراعيه . سقط السيد أبو دراع ، ابن الليل التائب . أجال أبو دراع فيمن حوله من الرجاله عينين مغبشتين . رآهم لا بسبب انعكاسهم على إنسانى عينيه ، علها صورة قديمة تخيلها وانبعثت من داخل مخه كما انبعثت على طرف لسانه أو من مراكز النطق من مخه جملة أعدها قبلا .

– معلهش ... جزاة اللى يعيش نعجة بين الديابة ... » (الليل الرحم) لكن نهاية هذا البطل المتمردة إنما تكون نقطة تحول يتخلف بدءاً منها بطل آخر ، مغترب متمرد . البطل الجديد أكثر وعياً بأسباب الاغتراب والقهر ، لكنه أضعف مقدرة على (الفعل) فى المواجهة . البطل المغترب الجديد – فتح اللّه – رخو ، متردد ، لكن القهر الاجتماعى يقتل حبه كما يقتل كل ما هو إنسانى وخير . السيد أبو دراع وهانم (حبيبة فتح اللّه) ،

كلاهما ضحية . إن الوعى بهذا يمثل عماد شخصية هذا البطل الجديد ، وهو – أى هذا الوعى – الذى يقوده إلى رفض القهر والتفكير فى الخروج لمواجهة الظلم . إنه يرفض أن تغتصب أرض السيد أبو دراع ، لكنه يشهد مصرعه ، وقد يكون مشاركًا فيه ، بل قد يكون هو القاتل . كان يحب السيد أبو دراع ، وكان يستشعر نوعًا من الفرح به . سيصيران جارين فى الأرض يسمع منه حكايات الليل . لكنه شهد مصرعه . وهو يرفض أن تغتصب (هانم) لكنه يتردد – على الرغم من حبه لها – فى الزواج بها . كلاهما ضحية : السيد أبو دراع ، وهانم ، لكن البطل محكوم برخاوة المغترب الذى قد يعى جزئيات ما حوله ، لكنه لا يعى الجذور الاجتماعية لأسباب اغترابه : « ... فتح اللّه لا يود أن يعود إلى دارهم ، لا يعرف السبب بعد يوم حكاية السيد أبو دراع ... كان ولد شهم يا خالة . فتح اللّه لو كان يدرى ما سيحدث لمنع ، هو نفسه ، أباه عن ضم قطعة أرض السيد أبو دراع إلى أرضهم . كان فتح اللّه يقيم جسرًا . انتبه على زعقة حامد . أبو دراع كان مقبلاً جريًا . تململ فتح اللّه . تمنى لو أنه اعترف لخالته أنه هو الذى ضرب . ليلتها حاول أن ينام . تلف فى رأسه المشاهد . صورة أبو دراع مرة جالسًا مع أبيه يرد على عم الوهيدى بلا خوف ، فى شهامة . على الحرام ياعم الوهيدى أنا والبندقية فى يدى ما تطرف عينى لجابر أبو سالم ،

ولا لعيلة السوالم كلها ، عيلة فى عينى قش ، لا الأرض ولا الهيصة تهز طرف عينى . فتح اللّه لم يستطع أن يوفق بين أبو دراع الشهم ، وبين أبو دراع ملقى على الأرض ، على وجهه فزع ، ذلة ، انكسار ، فى لحظة لم يكن هو السيد أبو دراع .. » (الليل الرحم) . يلوذ المغترب أبداً – فى مداراته لتردده ورخاوته – بمن يعيد إلى تفسه توازنها . وفتح اللّه يلوذ بخالته ، يبرز له وجهها وقت الشدة ، يفتش فى جهامته عن ابتسامة تعيد إلى التوازن « ... آه يا خاله لو يسكن فتح اللّه فى حماك حتى يوم القيامة ، لحظات الصفو الخالص معك وحدك ... » (نفس القصة) لكن هذا الصفو مؤقت بل هو وهمى ، لأن أسباب القهر – التى قتلت الإنسان والحب – تعمل عملها ، حتى لا يمكن نفيها ، لا بالهروب ، ولا بالتمرد. ينتهى هذا البطل المغترب – فتح اللّه – إلى الليل ، خارجًا متمرداً « ... لا وقت للحزن . رجع المشيعون . لا يزيد عددهم عن أصابع اليدين . تخلف فتح اللّه . وقف وحيداً . الكلوب يبتعد . على المقابر يزحف ظلام ثقيل . أمه . سيد أبو دراع ... عبد الشاطر ... أخيراً هانم ... الظلام ... السكوت نواح خافت يأتيه من بعيد ، من داخل البلد . بلد كئيبة مقبضة ليس بها ما يربطه إليها . يبرز وجه خالته تضيع فى جهامته ابتسامة ، يلتقطها فتح اللّه دائمًا : الأصابع الطويلة المعروقة . تحركت قدماه . كان الطريق الثانى من داخل المقابر يقود إلى جسر المصرف النظامى ، الجسر الذى ترقد البلد الموبوءة فى ظله . سارت القدمان ... لا يعرف شيئًا . لا يدرى شيئًا . لا يرغب فى شىء . لا يرغب عن شىء . كل شىء كأى شىء . ماتت هانم حقا . هو يحبها

الآن ما عادت سدا فى وجهه . خالة أنا هـ . هج . هـ . هج يا خالة .
القدمان تخطران . الكون كله ظلام وفراغ . تحت المقابر ظلام وفراغ .
على سطح الأرض ظلام وفراغ . السماء ظلام وفراغ . وانتم يارجال
الليل ، ياصحاب ، قادم إليكم . لم أقتل السيد أبو دراع صدقونى . ردوا ،
مدوا أيديكم ... » (نفس القصة) . أولاد الليل سعاة إلى الحرية ،
يسعون إليها وهم يهتفون بالليل والعين ، والحب ، والسجن والفقر
والجدعان . لكن المتمرد ينتهى إلى طريق مسدود إنه ينتهى إلى تدعيم
ما يرفضه ، وإلى الانهزام أمام ذات الذى يقهره . إن الحرية هى فهم
الضرورة . والضرورة الاجتماعية هى قوانين القهر والاستغلال . ومعنى
الحرية هو إدراك البشر لهذه القوانين الموضوعية وتوجيه حركتها
و إخضاعها لإرادتهم ، وبهذا يتحكمون فى تطور المجتمع . وتظل
الضرورة (عمياء) متحكمة طالما بقيت القوانين التى تحكمها غير مفهومة ،
وتتحول إلى ضرورة (مبصرة) أى تتحول إلى حرية للبشر عندما
يكتشفون تلك القوانين . إن النضال وعى اجتماعى وتنظيم جماعى .
والبطل فى جماعة القرية هو المتمرد ، لا الثورى . أتظل المأساة هناك ؟
لا ، فإن هذه الجماعة جزء من (مجموعة تاريخية) هى الشعب المصرى ،
الذى تتوفر الشروط التاريخية لنفى أسباب اغترابه ، فى القرية وفى
المدينة على السواء . ولقد تعرفنا فى هذه المجموعة على نماذج طيبة
لميلاد البطل .

(٣)

يبذل الكاتب جهدًا مضنيًا واعيًا فى البناء الفنى ، وغايته أن يلائم بين الموقف وتشكيله . وهنا لا تجد مقولة غلاة الرومانسيين عن المطابقة بين الفنان وأسلوبه ، أى عن دلالة الأسلوب على (ذات الفنان) نقول لا نجد لهذه المقولة مكانًا ، لأن الأسلوب هو طرائق التعبير والتوصيل لمضمون تحدد بموقف الفنان . أى أن الأسلوب ليس ملمحًا (شخصيا) و إنما هو جهد موضوعى . لا يدل أسلوب الفنان على (ذاته) ، و إنما يدل على (موقفه) . فالفنان صاحب أسلوب بقدر ما هو صاحب موقف ويجهد كاتبنا – موفقًا – ليناسب بين موقفه – كما عرضنا له فى صدر الفقرة السابقة – ولغته التشكيلية وأدواته فى البناء . فهو لا يقص حكايات و إنما يشيد أبنية ، ولا يقدم شخصيات و إنما يخلق نماذج أبطال . ولقد ساعده فى هذين الأمرين – التشييد والخلق – وحدة موضوعه ، ووحدة موقفه : هو – فى البناء – لا يصف الواقع ، و إنما يعكس حركته . ولقد شملت حركة الواقع لديه امتدادها الزمانى ، وشمولها المكانى ، بحيث بدت كأنما قد عكست خلال نظرة إنثروبولوجية رحبة . لقد بدا الواقع فى صورة غير عادية ، أكاد أقول فى صورة أسطورية ، مع أنه – الواقع – لم يفارق (واقعيته) المألوفة ، ولم يتخل عن كل ما هو موح ودال فيه ، كذلك بدت الكائنات من إنسان وحيوان وأشياء فى وحدة (حيوية) ، غلفها روح صوفى شفيف . وقد عصمت هذه الوحدة الكاتب من الرؤية التسجيلية الميكانيكية ، مع أنها – أى هذه

الوحدة – قد احتفظت لكل عنصر من عناصر تلك الكائنات بحضوره المتميز وملامحه الخاصة ، بل وبدوره المنفرد في البناء . من شأن هذا (الأسلوب) فى بناء العمل الفنى ، أن يخلص الكاتب من كل ما يخل بالوحدة ، واستمد البناء إيقاعه من إيقاع حياة تلك الكائنات (الموحدة) والكاتب – فى نموذج البطل – يحقق صياغة طيبة للجدل بين حرارة الذات الإنسانية وموضوعية الحقيقة العيانية ، مهتديًا بتلك الوحدة الحيوية التى لمحها بين الأحياء والأشياء ، ومانحًا الأولوية للعالم الداخلى لنماذجه . يتصل بهذا المنحى طريقة (التذكر) فى خلق ملامح النموذج الإنسانى ، ولقد نجحت هذه الطريقة لدى الكاتب ، و إن لم ترق إلى وظيفتها التى أرادها فى بعض الأحيان (ذكريات نجية عن زوجها السابق صالح : كل شىء حقيقة) . لكن هذه الطريقة كانت واحدة من الوسائل الموفقة فى بناء نموذج البطل المغترب الذى وقفنا عنده فى الفقرة السابقة .

بهذا الجهد ، وبالموهبة والوعى الجمالى ، يقف محمد روميش ، واحدًا من أبناء القصة القصيرة الجديدة فى أدبنا المعاصر .

د. عبد المنعم تليمة

المراجعة اللغوية : رجب الصـــاوى

الإشـراف الفنـى : راندة عبد الكريم

كاتب هذه المجموعة يعرف جماعته معرفة طيبة، يجلس بين صفوفها، ويتحدث إليها، ويسع قلبه - بوجد صوفى دافئ - أشواقها وهمومها.

لكنه مع ذلك يخرج من الصفوف، ويبتعد - وقلبه هناك - ليتيح لفكره أن يعى ما يسود حياة جماعته من تناقضات وعلاقات، ولخياله أن يلمح وراء الظاهر اللامنطقى جوهرًا منطقيًا، ولجهده الفنى أن يصوغ هذا الجوهر فى واقع هذه الجماعة.

الكاتب ببساطة - كما سيرى القارئ - يحب جماعته، لكنه يكره ما هو قائم بينها من علاقات، ويتجه به حبه لها - فكريًا - إلى بناء علاقات جديدة، أكثر إنسانية، كما يتجه به حبه لها - جماليًا - إلى بناء عمله مستلهمًا لغة وأدوات تشكيل من تراثها.

